زبدة الإتقان في علوم القرآن

تأليف

السيد محمد بن السيد علوي المالكي الحسني
خادم العلم الشريف في البلد الحرام

زبدة الإتقان في علوم القرآن

تأليف

السيد محمد بن السيد علوي المالكي الحسني
خادم العلم الشريف في البلد الحرام

بسم اللہ الرحمن الرحیم

زبدة الإتقان
في علوم القرآن

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد: فالقرآن الكريم كتاب ختم الله به الكتب وأنزله على نبي ختم به الأنبياء بدين عام خالد ختم به الأديان.

فهو دستور الخالق لإصلاح الخلق، وقانون السماء لهداية الأرض، أنهى إليه منزلهُ كلّ تشريع وأودعه كل نهضة وناط به كل سعادة وهو حجة الرسول ﷺ وآيته الكبرى يقوم في فم الدنيا شاهدا برسالته ناطقا بنبوته دليلا على صدقه وأمانته.

وهو ملاذ الدين الأعلى، يستند الإسلام إليه في عقائده وعباداته وحكمه وأحكامه وآدابه وأخلاقه وقصصه ومواعظه وعلومه ومعارفه وهو عماد لغة العرب الأسمى. تدين له اللغة في بقائها وسلامتها وتستمد علومها منه على تنوعها وكثرتها وتفوق سائر اللغات العالمية به في أساليبها ومادّاتها.

لذلك كلّه كان القرآن الكريم موضع العناية الكبرى من الرسول ﷺ وصحابته وسلف الأمة وخلفها جميعا إلى يوم الناس هذا وقد اتخذت هذه العناية أشكالا مختلفة فتارة ترجع إلى لفظه وأدائه، وأخرى إلى أسلوبه وإعجازه وثالثة إلى كتابته ورسمه ورابعة إلى تفسيره وشرحه إلى غير ذلك. ولقد أفرد العلمآء كل ناحية من هذه النواحي

بالبحث والتأليف ووضعوا من أجلها العلوم ودوّنوا الكتب وتبادروا في هذا الميدان الواسع أشواطا بعيدة حتى زخرت المكتبة الإسلامية بتراث مجيد من آثار سلفنا الصالح وعلمائنا الاعلام. وكانت هذه الثروة ولا تزال مفخرة نتحدى بها أمم الأرض ونفحم بها أهل الملل والنحل في كل عصر ومصر.

وهكذا أصبح بين أيدينا الآن مصنفات متنوعة وموسوعات قيمة فيما نسميه علم القراآت وعلم التجويد وعلم النسخ العثماني وعلم التفسير وعلم الناسخ والمنسوخ وعلم غريب القرآن وعلم إعجاز القرآن وعلم إعراب القرآن وما شاكل ذلك من العلوم الدينية والعربية مما يعتبر بحقٍّ أروع علم عرفه التاريخ لحراسة كتاب هو سيّد الكتب وبات هذا المظهر معجزة إلهية مصدقة لقوله تعالى: [إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون].

ولقد أنجبت تلك العلوم الآنفة وليدا جديدا هو مزيج منها جميعا وسليل لها جميعا، فيه مقاصدها وأغراضها وخصائصها وأسرارها «والولد سر أبيه» وقد أسموه [علوم القران] وهو موضوع دراستنا في هذا الكتاب إن شاء الله إلا أنا نهتم منها بما يتعلق بعلم التفسير لأجل سهولة خوض غمار تفسير القرآن الكريم كمفتاح للمفسرين فمثلها من هذه الناحية كمثل علوم الحديث بالنسبة لمن أراد أن يدرس علم الحديث.

وقد صرح السيوطي بذلك في خطبة كتابه الإتقان الذي منه نلخص هذه الزبدة إذ قال: ولقد كنت في زمن الطلب أتعجب من المتقدمين إذ لم يدونوا كتابا في أنواع علوم القرآن كما وضعوا ذلك بالنسبة إلى علم الحديث اهـ.

فهذه فصول في علوم القرآن لخصّناها من كتاب الإمام السيوطي رحمه الله تعالى الذي سماه الإتقان في علوم القرآن مع بعض تحقيقات

وزيادات لا بدّ منها لاستكمال الفائدة وسمّيناه «زبدة الاتقان في علوم القرآن» نسأل الله تعالى أن ينفع به كما نفع بأصله وجعله عملا صالحا لوجهه الكريم آمين.

مكة المكرمة في:

٨ ربيع الآخر ١٤٠١هـ.

وكتبه

السيد محمد بن السيد علوي بن السيد عباس المالكي الحسني
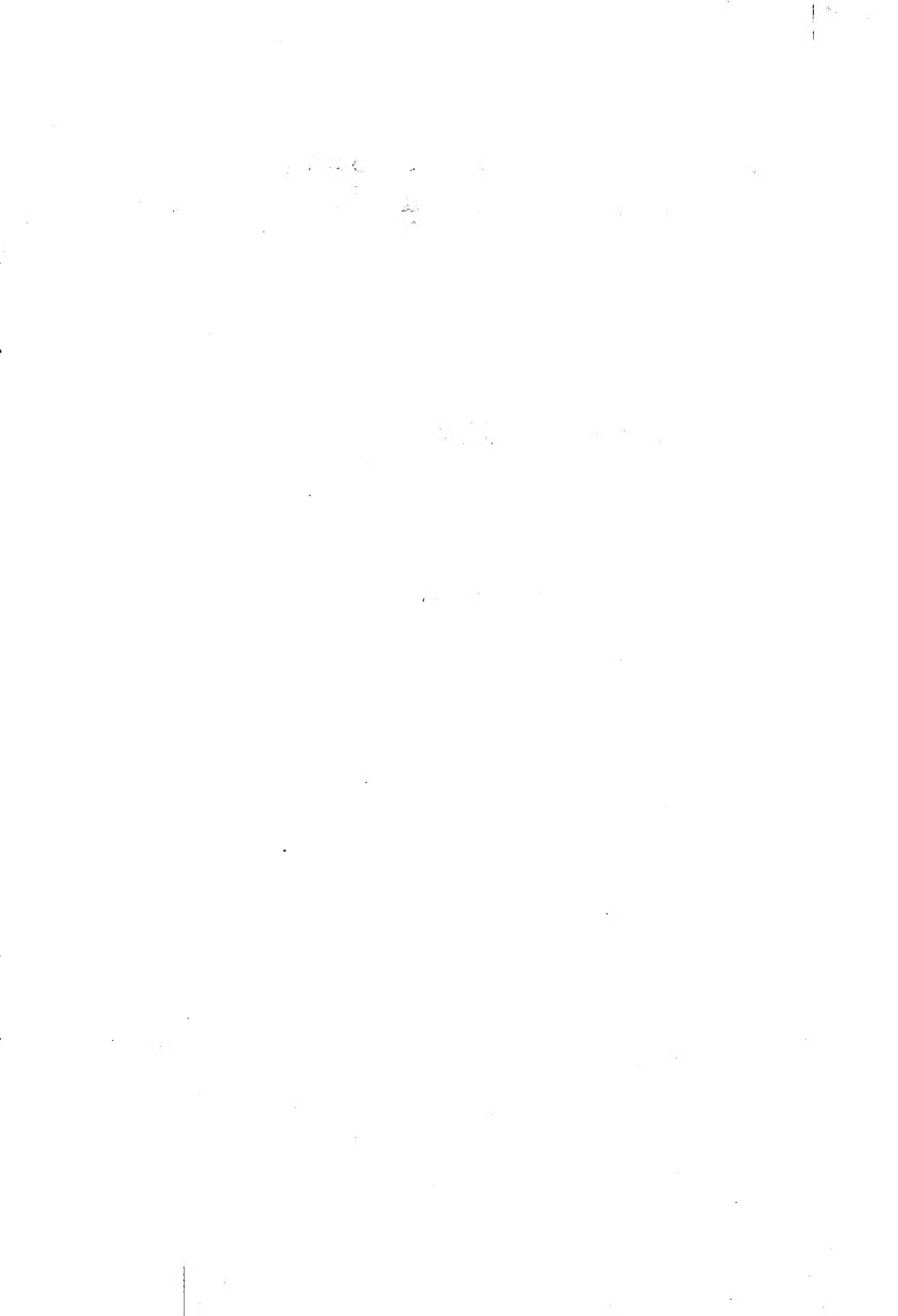
[مقدمة في علوم القرآن التي هي مصطلح التفسير]

اعلم أنه لا بد من معرفة مصطلح التفسير قبل قراءة التفسير ليكون الإنسان على بصيرة تامّة منه. فيعرف المكي والمدني والناسخ والمنسوخ وأسباب النزول. ويترتب على ذلك فهم معاني الآيات.

ومن خاض التفسير قبل معرفة مصطلحه كان في حيرة وقل نشاطه والتبست عليه المقاصد.

علم التفسير هو مأخوذ من قولهم: فسرت الشيء، إذا بينته. وسمي العلم المذكور تفسيرا لأنه يبين القرآن ويوضّحه.

وحده: هو علم يبحث فيه عن أحوال القرآن الكريم من جهة نزوله كمكيه أو مدنيه ونحوه كسنده وأدائه وألفاظه ومعانيه المتعلقة بالأحكام وغير ذلك.

ومو ضوعه : كلام الله عز وجلّ من الحيثية المذكورة.

وفائدته : التوصل إلى فهم معاني القرآن والعمل بما فيه بعد الفهم.

وثمرته : التمسك بالعروة الوثقى والفوز بالسعادة في الدارين.

وواضعه : الله تعالى ونبيه عليه الصلاة والسلام فهو علم إلهي نبوي.

واستمداده: من القرآن نفسه والسنة وأساليب العرب.

ومسائله : ما يستفاد منه من أحكام وعقائد وأمثال ومواعظ.

ونسبته : أنه من العلوم الدينية بل رئيسها لكونها مأخوذة من الكتاب ومتوقفة في الاعتداد بعد الثبوت عليه.

وفضله : أنه من أشرف العلوم وأجلّها لأن العلوم إنما تشرف بشرف موضوعاتها وموضوعه أجلّ وأشرف.

وأما بيان الحاجة إليه فلأن فهم القرآن المشتمل على الأحكام الشرعية التي هي مدار السعادة الأبدية وهي العروة الوثقى لا يهتدى إليها إلا بتوفيق من اللطيف الخبير حتى أن الصحابة رضي الله عنهم على علوّ كعبهم في الفصاحة واستنارة بواطنهم بما أشرق عليهم من مشكاة النبوة، كانوا كثيرا ما يرجعون إليه ﷺ بالسؤال عن أشياء - لم يعرجوا عليها ولم تصل أفهامهم إليها كما وقع لعدي بن حاتم في الخيط الأبيض والأسود. ولا شك أنا محتاجون إلى ما كانوا محتاجين إليه وزيادة.

حدّ القرآن:

القرآن لغة مأخوذ من القرء وهو الجمع. وعرفا هو الكلام المنزل على سيّدنا محمد ﷺ المعجـز بسورة منه.

فقولنا الكلام جنس شامل لجميع الكلام.

وقولنا المنزل على سيدنا محمد ﷺ فصل مخرج للكلام النازل على غيره من الأنبياء كالتوراة والإنجيل وسائر الكتب والصحف.

وقولنا المعجز فصل ثان مخرج للأحاديث الربانية كحديث الصحيحين: أنا عند ظن عبدي.

ثم الاقتصار في الحدّ على الإعجاز وإن نزل القرآن لغيره أيضا - لأنه المحتاج إليه في التمييز فهو الأهم.

وقولنا: بسورة منه بيان لأقل ما يحصل به الإعجاز وهو قدر أقصر سورة كالكوثر. وإنما كان أقل الإعجاز بأقل سورة لأنه لم يكن في القرآن آية مفردة بل الآية تستلزم مناسبة لما قبلها وما بعدها فتكون ثلاث آيات.

وزاد بعضهم في الحدّ فقال: المتعبد بتلاوته، ليخرج منسوخ التلاوة.

والسورة هي جملة من القرآن أقلها ثلاث آيات، مسماة باسم خاص لها بتوقيف من النبي ﷺ بأن تذكر بذلك الاسم وتشتهر به.

والآية هي جملة من السورة مميزة بالفاصلة وهي الكلمة التي تكون آخر الآية.

(المكي والمدني)

إعلم أن للناس في المكي والمدني اصطلاحات ثلاثة، أشهرها: المكي ما نزل قبل الهجرة. والمدني ما نزل بعدها. سواء نزل بمكة - أم بالمدينة عام الفتح أو عام حجة الوداع أم بسفر من الأسفار. هذا هو الأصحّ في تعريفهما.

والثاني: أن المكي ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة. والمدني ما نزل بالمدينة. وعلى هذا تثبت الواسطة. فما نزل في الأسفار لا يطلق عليه مكي ولا مدني.

والثالث: أن المكي ما وقع خطابا لأهل مكة. والمدني ما وقع خطابا لأهل المدينة.

قال القاضي أبو بكر في الانتصار: إنما يرجع في معرفة المكي والمدني لحفظ الصحابة والتابعين. ولم يرد عن النبي ﷺ في ذلك قول، لأنه لم يؤمر به ولم يجعل الله علم ذلك من فرائض الأمة. وإن وجب في بعضه على أهل العلم معرفة الناسخ والمنسوخ فقد يعرف ذلك بغير نص الرسول.

ولمعرفة المكي والمدني فوائد. منها: معرفة الناسخ من المنسوخ ومنها: معرفة ترتيب القرآن في النزول. وقد كان لبعض الصحابة رضي الله عنهم عناية شديدة بذلك. فمنهم سيدنا علي رضي الله عنه وعبد الله بن مسعود، وابن عباس رضي الله عنهم.

وقد ذكر العلماء للمكي والمدني علامات:

منها: ان كل سورة فيها يا أيها الناس وليس فيها يا أيها الذين آمنوا، فهي مكية. وفي الحج اختلاف.

ومنها: كل سورة فيها كلاّ فهي مكية.

ومنها: أن كل سورة فيها قصة آدم وإبليس فهي مكية سوى البقرة.

ومنها: ان كل سورة فيها ذكر المنافقين فهي مدنية سوى العنكبوت.

وقال هشام بن عروة عن أبيه: كل سورة ذكر فيها الحدود - والفرائض فهي مدنية. وكل ما ذكر فيها القرون الماضية فهي مكية.

فائدة

نزلت بالمدينة تسع وعشرون سورة. البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والانفال، والتوبة والرعد والحج والنور والأحزاب ومحمد والفتح والحجرات والحديد والمجادلة والحشر والممتحنة والصف والجمعة - والمنافقون والتغابن والطلاق والتحريم والقيامة والزلزلة والقدر والنصر والمعوذتان.

وسائر ذلك نزل بمكة وهو خمس وثمانون سورة. إذ سور القرآن كلها مائة وأربع عشرة.

[الحضري والسفري]

والحضري ما نزل بالحضر والسفري ما نزل في السفر.

وأما السفري فله أمثلة. منها آية التيمم في سورة المائدة. أولها: يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة - الآية. فإنها نزلت بمحل يسمى بذات الجيش، وهي وراء ذي الحليفة. وقيل بالبيداء وهي ذو الحليفة بالقرب من المدينة من طريق مكة. وعلى كل فإنها نزلت في القفول من غزوة المريسيع وهم داخلون المدينة، كما ثبت في الصحيح عن عائشة رضي الله عنها.

ومنها سورة الفتح نزلت في شأن الحديبية كما أخرجه الحاكم، في - كراع الغميم. واد بينه وبين المدينة نحو مائة وسبعين ميلا وبينه وبين مكة نحو ثلاثين ميلا. ومن عسفان إليه ثلاثة أميال.

وأمثلة الحضري كثيرة لكونه الأصل. فلا يحتاج إلى تمثيل لوضوحه.

تنبيه

وتقسيم نزول القرآن إلى مكي ومدني وحضري وسفري باعتبار المكان. وينقسم أيضا باعتبار الزمان إلى ليلي ونهاري وصيفي وشتائي.

وأمثلة النهاري كثيرة لأنه الأصل. وأما الليلي فمن أمثلته آية تحويل القبلة.

ومن أمثلة الصيفي آية الكلالة وهي قوله تعالى: ﴿يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة..﴾ إلى آخر سورة النساء. وسماها النبي بآية الصيف كما ثبت في صحيح مسلم عن عمر رضي الله عنه.

ومن أمثلة الشتائي قوله تعالى: ﴿إن الذين جاءوا بالإفك..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ورزق كريم﴾ في سورة النور.

ففي الصحيح عن عائشة أنها نزلت في يوم شات.

أول ما نزل

اختلف في أول ما نزل من القرآن على أقوال أحدها وهو الصحيح «إقرأ باسم ربك» وهذا ثابت في الصحيحين وغيرهما فعن عائشة رضي الله عنها؛ أنها قالت: أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم. فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ثم حبب إليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه (وهو التعبد) الليالي ذوات العدد، قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق في غار حراء فجاءه الملك فقال: إقرأ. قال رسول الله ﷺ. قلت: ما أنا بقارئ فاخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: إقرأ قلت: ما أنا بقارئ فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: إقرأ. قلت: ما أنا بقارئ. فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال: [إقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق إقرأ وربك الأكرم] وفي بعض الروايات حتى بلغ ما لم يعلم. الحديث بطوله.

القول الثاني - يا أيها المدثر - فقد روى الشيخان عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال سألت جابر بن عبد الله أي القرآن أنزل قبل؟ قال: «يا أيها المدثر» قلت أو إقرأ باسم ربك؟ قال أحدثكم ما حدثنا به رسول الله قال رسول الله ﷺ: إني جاورت بحراء .فلما قضيت جواري نزلت فاستبطنت الوادي فنظرت أمامي وخلفي وعن يميني وشمالي ثم نظرت إلى السماء فإذا هو - يعني جبريل - فأخذتني رجفة فأتيت خديجة فأمرتهم فدثروني فأنزل الله (يا أيها المدثر قم فأنذر).

لكن العلماء أجابوا عن هذا التعارض بأجوبة أشهرها أن المراد

بالأولية في حديث جابر أولية مخصوصة وهي أولية الأمر بالإنذار أي أول ما نزل للرسالة [يا أيها المدثر] وأول ما نزل للنبوة (إقرأ باسم ربك) وهذا جواب جيّد سديد.

وأجاب بعضهم بأن مراد جابر أن سورة المدثر أول سورة نزلت كاملة وهذا لا يعارض أن (إقرأ أول ما نزل) مطلقاً لأنها لم تنزل كلها بل نزل منها صدرها. ويؤيد هذا أنه جاء في رواية أخرى عن جابر نفسه في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: بينا أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت رأسي فإذا الملك الذي جاءني بحراء على كرسي بين السماء والأرض فرجعت فقلت زملوني زملوني فدثروني فأنزل الله [يا أيها المدثر] فقوله في الحديث - الملك الذي جاءني بحراء - يدل على أن هذه القصة متأخرة عن قصة حراء التي نزل فيها [إقرأ باسم ربك] قلت وهذا أصح ما جاء في هذا الباب من ناحية الدليل.

وأجاب بعضهم بأن جابراً استخرج هذا باجتهاده وليس هو من روايته فيقدم عليه ما روته عائشة. وهذا من أحسن الأجوبة.

القول الثالث: أن أول ما نزل الفاتحة وثبت ذلك بحديث رواه البيهقي أجاب عنه العلماء بأنه حديث مرسل أو يحتمل أن يكون خبراً عن نزولها بعد ما نزلت عليه إقرأ.

القول الرابع: أن أول ما نزل بسم الله الرحمن الرحيم.

وأجاب عنه السيوطي بأن هذا لا يعد قولا برأسه فإنه من ضرورة نزول السورة نزول البسملة معها.

وهناك أقوال أخرى في أول ما نزل، وكل ذلك لا يثبت من ناحية السند وإن صح فيتأول بأن معنى أول ما نزل. على حذف (من) أي من أول ما نزل.

أوائل مخصوصة

١ - أول ما نزل بمكة إقرأ باسم ربك وأول ما نزل بالمدينة سوزة البقرة وقيل ويل للمطففين.

٢ - وآخر ما نزل بمكة سورة المؤمنون وآخر ما نزل بالمدينة سورة براءة.

٣ - أول ما نزل في القتال [أُذن للذين يُقاتَلون بأنهم ظلموا] الحج: ٣٩.

٤ - أول ما نزل في شأن الخمر [يسألونك عن الخمر والميسر] البقرة: ٢١٩.

٥ - أول سورة أُنزلت فيها سجدة [النجم] - رواه البخاري -

٦ - أول ما نزل في الأطعمة بمكة [قل لا أجد فيما أوحي إليّ محرماً] وبالمدينة [إنما حرم عليكم الميتة].

آخر ما نزل

اختلف العلماء في ذلك على أقوال أشهرها:

١ - أن آخر ما نزل قوله: [يستفتونك قل الله يفتيكم] - رواه الشيخان -

٢ - وقال ابن عباس آخر آية نزلت آية الربا رواه البخاري وهي قوله: [يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا].

٣ - وقال أيضاً آخر آية نزلت [واتقوا يوماً ترجعون فيه].

٤ - وقال سعيد بن المسيب آخر آية نزلت آية الدين قال السيوطي وهو مرسل صحيح الإسناد.

ويمكن الجمع بين القول الثاني وما بعده بأنها نزلت كلها دفعة واحدة كترتيبها في المصحف فيصدق على كل منها أنها آخر ما نزل وحينئذ يتأول القول الأول بأنه آخر ما نزل في شأن الفرائض والأحكام.

لكن يشكل على هذا ما ورد أن قوله تعالى [اليوم أكملت لكم دينكم] نزلت بعرفة عام حجة الوداع، ووجه الإشكال هو أن ظاهرها اكمال جميع الفرائض والأحكام قبلها مع أنه ورد في آية الربا والدين والكلالة أنها نزلت بعد ذلك ولذلك فقد تأول العلماء هذه الآية بأن اكمال الدين المراد به في الآية إقرارهم بالبلد الحرام وإجلاء المشركين عنه حتى حجه المسلمون لا يخالطهم المشركون. ويؤيد هذا قول ابن عباس: كان المشركون والمسلمون يحجون جميعاً فلما نزلت براءة نفي المشركون عن البيت وحج المسلمون لا يشاركهم في البيت الحرام أحد من المشركين فكان ذلك من تمام النعمة [وأتممت عليكم نعمتي].

أقوال أخرى في آخر ما نزل والجواب عنها:

وقد روى السيوطي عن كثير من العلماء أقوالاً أخرى في آخر ما نزل فمنها أن آخر ما نزل سورة [إذا جاء نصر الله والفتح] ومنها أنه سورة المائدة ومنها أنه آية [لقد جاءكم رسول من أنفسكم] ومنها أنه سورة الفتح ومنها أنه (سورة براءة) قال البيهقي: يجمع بين هذه الاختلافات - إن صحت - بأن كل واحد أجاب بما عنده وقال القاضي أبو بكر في الانتصار: هذه الأقوال ليس فيها شيء مرفوع إلى النبي ﷺ وكل قال ما قاله بضرب من الاجتهاد وغلبة الظن ويحتمل أن كل واحد منهم أخبر عن آخر ما سمعه من النبي ﷺ في اليوم الذي مات فيه أو قبل مرضه بقليل وغيره سمع منه بعد ذلك.

معرفة سبب النزول

اعلم أن نزول القرآن على قسمين: قسم نزل إبتداءً وقسم نزل عقب واقعة أو سؤال.

وقد تتبع العلماء القسم الثاني وصنفوا فيه كتباً مخصوصة بينوا الآيات التي نزلت بسبب وبينوا ذلك السبب واجتهدوا فيه اجتهاداً بالغاً وأشهر مؤلف في هذا الموضوع «لباب النُّقول في أَسباب النزول» للحافظ السيوطي.

وفي هذا العمل فوائد جليلة منها:

معرفة وجه الحكمة الباعثة على تشريع الحكم ومنها أنه طريق قوي في فهم معاني القرآن لأن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب.

هذا وإليك هاتين القصتين لتعرف بها أنه لولا معرفة سبب النزول لزلت أَقدام كثير في فهم المعنى وإدراك المقصود.

فقد قرأ مروان بن الحكم قوله تعالى: [لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا] الآية[1] وقال: لئن كان كل امرىءٍ فرح بما أوتى وأَحب أن يحمد بما لم يفعل معذباً لنعذَّبن أجمعون. وهذا الذي فهمه هو صحيح بالنسبة لظاهر الآية. لكن بيَّن له ابن عباس الحقيقة وهي أَن الآية نزلت في أَهل الكتاب حين سأَلهم النبي ﷺ عن شيءٍ فكتموه إيّاه وأَخبروه بغيره وأَروه أَنهم أخبروه بما سأَلهم عنه واستحمدوا بذلك إليه. (أَخرجه الشيخان).

وحكي عن عثمان بن مظعون وعمرو بن معديكرب أنهما كانا يقولان الخمر مباحة ويحتجان بقوله تعالى:

---

(١) سورة آل عمران ١٨٨.

[ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا].
(المائدة: ٩٣)

ولو علما سبب نزولها لم يقولا ذلك وهو أن ناساً قالوا لما حُرمت الخمر: كيف بمن قتلوا في سبيل الله وماتوا وكانوا يشربون الخمر وهي رجس؟ فنزلت [أخرجه أحمد والنسائي وغيرهما]. ولولا معرفة سبب نزول قوله تعالى: [فأينما تولوا فثم وجه الله] لقال قائل: أن ظاهرها يفيد أن المصلي لا يجب عليه استقبال القبلة لا سفراً ولا حضراً. وهو خلاف الإجماع لكن بمعرفة سبب نزولها يعلم أنها في نافلة السفر أو فيمن صلّى اجتهاداً ثم بان له الخطأ على اختلاف الروايات في ذلك.

هل للسبب تأثير في تحديد الحكم:

مما يتصل بهذا المبحث مسألة مهمة جرى الخلاف فيها بين علماء الأُصول. وهي أننا إذا عرفنا سبب نزول آية متضمنة لحكم شرعي فهل يكون ذلك الحكم خاصاً بذلك السبب الذي نزلت فيه الآية أم يكون عاماً فيشمل غيره ويعبرون عنها بقولهم: هل العبرة بعموم اللفظ أو بخصوص السبب؟ والجواب أن المشهور الأصح هو أن العبرة بعموم اللفظ فالحكم يتناول غير السبب الذي نزل من أجله. وقد نزلت آيات في أسباب واتفقوا على تعديتها إلى غير أسبابها كنزول آية الظهار في سلمة ابن صخر. وآية اللعان في شأن هلال بن أُمية وحد القذف في رماة عائشة ثم تعدى إلى غيرهم. ومن لا يعتبر عموم اللفظ، يقول خرجت هذه الآيات ونحوها لدليل آخر.

قال الحافظ السيوطي ومن الأدلة على اعتبار عموم اللفظ، احتجاج الصحابة رضي الله عنهم في وقائع بعموم آيات نزلت على أسباب خاصة شائعاً ذائعاً بينهم.

وهذا بالنسبة للآية التي يفيد لفظها العموم أما الآية التي نزلت في

معين ولا عموم للفظها فإنها تقصر عليه قطعاً كقوله تعالى [وسيجنبها الأتقى ★ الذي يؤتى ماله يتزكى] فانها نزلت في أبي بكر الصديق بالإجماع..

ووهم من ظن أن الآية عامة في كل من عمل عمله إجراء له على القاعدة. وهذا غلط فإن هذه الآية ليس فيها صيغة عموم إذ الألف واللام انما تفيد العموم إذا كانت موصولة أو معرّفة في جمع زاد قوم: أو مفرد بشرط ألاّ يكون هناك عهد، واللام في الأتقى ليست موصولة لأن أل لا توصل بأفعل التفضيل اجماعاً، والأتقى ليس جمعاً بل هو مفرد والعهد موجود خصوصاً مع ما يفيده صيغة [افعل] من التمييز وقطع المشاركة فبطل القول بالعموم وتعين القطع بالخصوص والقصر على من نزلت فيه رضي الله عنه.

فوائد تتعلق بأسباب النزول

مصادر أسباب النزول:

لا يحل القول في أسباب النزول إلاّ بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل ووقفوا على الأسباب وبحثوا عن علمها قال محمد بن سيرين: سألت عبيدة عن آية من القرآن فقال: اتق الله وقل سداداً، ذهب الذين يعلمون فيم أنزل الله القرآن. والصحابة رضي الله عنهم هم المرجع الأول والآخر لهذا النقل. وهم رضوان الله عليهم يعرفون ذلك بقرائن تحتفّ بالقضايا قلت: ويدركون ذلك أيضاً بملازمة النبي ﷺ ومعرفة أحواله وتتبع ما ينزل عليه من الآيات الكريمات وشهودهم ذلك بأنفسهم.

ما معنى قول الصحابة هذه الآية نزلت في كذا؟ هل يجري مجرى المسند وهل يفيد سبب نزولها؟

اختلف العلماء في قول الصحابي: نزلت هذه الآية في كذا.

هل يجري مجرى المسند كما لو ذكر السبب الذي أُنزلت لأَجله أو يجري مجرى التفسير الذي ليس بمسند؟ فالبخاري يدخله في المسند وغيره لا يدخله فيه وأكثر المسانيد على هذا الاصطلاح كمسند أحمد وغيره بخلاف ما إذا ذكر سبباً نزلت عقبه فانهم كلهم يدخلون مثل هذا في المسند.

وعن المسألة الثانية وهي [هل يفيد سبباً لنزول الآية]. قال الزركشي في البرهان قد عرف من عادة الصحابة والتابعين أن أحدهم إذا قال نزلت هذه الآية في كذا، فإنه يريد بذلك أنها تتضمن هذا الحكم، لا أن هذا كان السبب في نزولها فهو من جنس الاستدلال على الحكم بالآية لا من جنس النقل لما وقع.

آية واحدة وأسباب متعددة:

يذكر المفسرون - لنزول الآية - أسباباً متعددة فإذا حصل مثل هذا في آية واحدة وصورته أن يقول أحدهم: هذه الآية نزلت في كذا. ويقول الآخر: نزلت في كذا ويذكر شيئاً غير ما ذكره الأول من غير تصريح بسبب النزول.. فهذا غالباً ما يراد به التفسير لا ذكر سبب النزول ولا منافاة بين قوليهما إذا كان اللفظ يتناولهما. وان عبّر واحد بقوله نزلت في كذا وصرّح الآخر بذكر سبب خلافه فهو المعتمد وذاك استنباط. مثاله ما اخرجه البخاري عن ابن عمر قال: نزلت نساؤكم حرث لكم في اتيان النساء في ادبارهن. واخرج مسلم عن جابر قال: كانت اليهود تقول: من اتى امرأة من دبرها في قبلها جاء الولد احول فانزل الله نساؤكم حرث لكم فالمعتمد حديث جابر لانه نقل وقول ابن عمر استنباط منه.

وان ذكر واحد سبباً وآخر غيره فإن كان إسناد أحدهما صحيحاً دون الآخر فالصحيح المعتمد.

مثاله أنه ثبت في الصحيحين أن النبي ﷺ اشتكى فلم يقم ليلة أو

ليلتين فأتته إمرأة فقالت يا محمد ما أرى شيطانك إلاَّ قد تركك فانزل الله [والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى].

وروى الطبراني أن جروا دخل بيت النبي ﷺ فمات تحت السرير ومكث أربعة أيام لا ينزل عليه الوحي حتى تنبهوا له وأخرجوه فنزل جبريل بقوله والضحى.

قال ابن حجر في الفتح قصة إبطاء جبريل بسبب الجرو شهيرة لكن كونها سبب نزول الآية غريب وفي إسناده من لا يعرف فالمعتمد ما في الصحيح.

ويمكن أن يكون نزول الآية عقب السببين أو الأسباب فتحمل على ذلك. إذ لا مانع من تعدد الأسباب ويمكن أن يتعدد نزول الآية ويتكرر ويكون لكل نزول سبب [مثاله] أن النبي ﷺ وقف على حمزة حين استشهد وقد مثل به. فقال لأمثلن بسبعين مكانك فنزل جبريل - والنبي ﷺ واقف - بخواتيم سورة النحل وفيها [وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به] أخرجه البيهقي والبزار.

وجاء أنها نزلت يوم الفتح لـمّا قال الأنصار يوم أُحد: لئن أصبنا منهم يوماً مثل هذا لنربين عليهم أخرجه الترمذي والحاكم فيجمع بينهما بأنها نزلت أولاً بمكة قبل الهجرة مع السورة لأنها مكية ثم ثانياً بأُحد ثم ثالثاً يوم الفتح.

آيات متفرقة والسبب واحد:

وهذا واقع فقد ينزل في الواقعة الواحدة آيات عديدة في سور شتى مثاله ما أخرجه الترمذي والحاكم عن أُم سلمة أنها قالت: يا رسول الله لا أسمع الله ذكر النساء في الهجرة بشيء فأنزل الله [فاستجاب لهم ربهم] إلى آخر الآيات في سورة آل عمران ١٩٥.

وأخرج الحاكم أيضاً عنها قالت: قلت يا رسول الله تذكر الرجال ولا تذكر النساء فأنزلت [ان المسلمين والمسلمات] الأحزاب: ٣٥. وأنزلت [أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى].

ما أنزل من القرآن على لسان بعض الصحابة

الأصل في هذا الباب موافقات عمر فقد كان يتحدث في أمر من الأمور، وإذا بالقرآن ينزل موافقاً لقوله وهي من مناقبه المشهورة. فقد جاء في الحديث أن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه (رواه الترمذي).

أخرج البخاري وغيره عن أنس قال: قال عمر وافقت ربي في ثلاث قلت يا رسول الله [لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى].

فنزلت: [واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى] وقلت يا رسول الله: إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر فلو أمرتهن أن يحتجبن فنزلت آية الحجاب واجتمع على رسول الله ﷺ نساؤه في الغيرة فقلت لهنّ: عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن فنزلت كذلك. وقد جمع الإمام السيوطي رسالة خاصة في موافقات عمر سماها **قطف الثمر في موافقات عمر**.

ما تكرر نزوله

ذكر جماعة من العلماء المتقدمين والمتأخرين أن من القرآن ما تكرر نزوله ولذلك حِكم: منها التذكير والموعظة، ومنها وجود المقتضى ومنها إظهار فضل زائد للمتنزل وقد ذكر بعضهم أن من ذلك آية الروح والفاتحة وسورة الإخلاص ويجوز أن يكون تكرار النزول لفائدة اختلاف حرف القراءة فتنزل الآية مرة على حرف ومرة أخرى على حرف غيره.

ولا يبعد أن تكون الفاتحة نزلت مرة بحرف [مالك يوم الدين] ومرة بحرف [ملك يوم الدين].

في معرفة حفَّاظه ورواته

روى البخاري عن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «خذوا القرآن من أربعة: من عبد الله بن مسعود، وسالم، ومعاذ، وأبي بن كعب» أي تعلموا منهم. والأربعة المذكورون اثنان من المهاجرين وهما المبدوء بهما واثنان من الأنصار. وسالم هو ابن معقل مولى أبي حذيفة ومعاذ هو ابن جبل.

وليس معنى هذا أن هؤلاء فقط هم الحفاظ بل هناك غيرهم مثلهم. وفي الصحيح في غزوة بئر معونة، أن الذين قتلوا بها من الصحابة كان يقال لهم القراء، وكانوا سبعين رجلاً.

وروى البخاري أيضاً عن قتادة، قال: سألت أنس بن مالك: من جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ؟ فقال: أربعة كلهم من الأنصار: أبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت وأبو زيد، قلت: من أبو زيد؟ قال: أحد عمومتي.

وروى أيضاً من طريق ثابت، عن أنس، قال: مات النبي ﷺ ولم يجمع القرآن غير أربعة: أبو الدرداء، ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت، وأبو زيد. وفيه مخالفة لحديث قتادة من وجهين: أحدهما التصريح بصيغة الحصر في الأربعة، والآخر ذكر أبي الدرداء بدل أبي بن كعب، وقد استنكر جماعة من الأئمة الحصر في الأربعة.

وقال المازري: لا يلزم من قول أنس: «لم يجمعه غيرهم» أن يكون الواقع في نفس الأمر كذلك، لأن التقدير أنه لا يعلم أن سواهم جمعه، وإلا فكيف الإحاطة بذلك مع كثرة الصحابة وتفرقهم في البلاد! وهذا

لا يتم إلا إن كان لقي كل واحد منهم على إنفراده، وأخبره عن نفسه أنه لم يكمل له جمع في عهد النبي ﷺ، وهذا في غاية البعد في العادة، وإذا كان المرجع إلى ما في علمه لم يلزم أن يكون الواقع في نفس الأمر كذلك، قال وقد تمسك بقول أنس هذا جماعة من الملاحدة ولا متمسك لهم فيه فانا لا نسلم حمله على ظاهره فان سلمناه لا يلزم من كون كل من الجم الغفير لم يحفظه كله ألاّ يكون حفظ مجموعه الجم الغفير، وليس من شرط التواتر أن يحفظ كل فرد جميعه، بل إذا حفظ الكل الكل ولو على التوزيع كفى.

وقال القرطبي: قد قتل يوم اليمامة سبعون من القراء، وقتل في عهد النبي ﷺ ببئر معونة مثل هذا العدد، قال: وإنما خص أنس الأربعة بالذكر لشدة تعلقه بهم دون غيرهم، أو لكونهم كانوا في ذهنه دون غيرهم.

وقال القاضي أبو بكر الباقلاني: الجواب عن حديث أنس من أوجه: أحدها: أنه لا مفهوم له، فلا يلزم ألا يكون غيرهم جمعه.

الثاني: المراد لم يجمعه على جميع الوجوه والقراءات التي نزل بها إلا أولئك.

الثالث: لم يجمع ما نسخ منه بعد تلاوته وما لم ينسخ إلا أولئك.

الرابع: أن المراد بجمعه تلقيه من في رسول الله ﷺ لا بواسطة بخلاف غيرهم، فيحتمل أن يكون تلقى بعضه بالواسطة.

الخامس: أنهم تصدوا لإلقائه وتعليمه، فاشتهروا به، وخفي حال غيرهم عمن عرف حالهم، فحصر ذلك فيهم بحسب علمه، وليس الأمر في نفس الأمر كذلك.

السادس: المراد بالجمع الكتابة، فلا ينفي أن يكون غيرهم جمعه

حفظاً عن ظهر قلبه، وأما هؤلاء فجمعوه كتابة وحفظوه عن ظهر قلب.

السابع: المراد أن أحداً لم يفصح بأنه جمعه بمعنى أكمل حفظه في عهد رسول الله ﷺ إلا أولئك بخلاف غيرهم فلم يفصح بذلك، لأن أحداً منهم لم يكمله إلا عند وفاة رسول الله ﷺ حين نزلت آخر آية. فلعل هذه الآية الأخيرة وما أشبهها ما حضرها إلا أولئك الأربعة ممن جمع جميع القرآن قبلها، وإن كان قد حضرها من لم يجمع غيرها الجمع الكثير.

الثامن: أن المراد بجمعه السمع والطاعة له، والعمل بموجبه وقد أخرج أحمد في الزهد من طريق أبي الزاهرية، أن رجلا أتى أبا الدرداء، فقال: إن ابني جمع القرآن، فقال: اللهم غفرا، إنما جمع القرآن من سمع له وأطاع.

قال ابن حجر: وفي غالب هذه الاحتمالات تكلف، ولا سيما الأخير قال: وقد ظهر لي احتمال آخر، وهو أن المراد إثبات ذلك للخزرج دون الأوس فقط، فلا ينفي ذلك عن غير القبيلتين من المهاجرين، لأنه قال ذلك في معرض المفاخرة بين الأوس والخزرج. كما أخرجه ابن جرير من طريق سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن أنس، قال: افتخر الحيان: الأوس والخزرج، فقال الأوس: منا أربعة: من اهتز له العرش سعد بن معاذ ومن عدلت شهادته شهادة رجلين خزيمة بن ثابت ومن غسلته الملائكة حنظلة بن أبي عامر، ومن حمته الدبر عاصم بن ثابت، فقال الخزرج: منا أربعة جمعوا القرآن لم يجمعه غيرهم فذكرهم قال: والذي يظهر من كثير من الأحاديث أن أبا بكر كان يحفظ القرآن في حياة رسول الله ﷺ، ففي الصحيح أنه بنى مسجداً بفناء داره، فكان يقرأ فيه القرآن، وهو محمول على ما كان نزل منه إذ ذاك. قال: وهذا مما لا

يرتاب فيه مع شدة حرص أبي بكر على تلقي القرآن من النبي ﷺ وفراغ باله له وهما بمكة وكثرة ملازمة كل منهما للآخر، حتى قالت عائشة: إنه ﷺ كان يأتيهم بكرة وعشيا. وقد صح حديث: «يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله» وقد قدّمه ﷺ في مرضه إماماً للمهاجرين والأنصار، فدل على أنه كان أقرأهم.

وذكر أبو عبيد في كتاب القراءات، القراء من أصحاب النبي ﷺ، فعد من المهاجرين الخلفاء الأربعة، وطلحة وسعداً وابن مسعود وحذيفة وسالماً وأبا هريرة، وعبد الله بن السائب والعبادلة وعائشة وحفصة وأم سلمة. ومن الأنصار عبادة بن الصامت ومعاذا الذي يكنى أبا حليمة، ومجمع بن جارية وفضالة بن عبيد ومسلمة بن مخلد. وصرّح بأن بعضهم إنما أكمله بعد النبي ﷺ.

أما المشتهرون بإقراء القرآن من الصحابة فسبعة عثمان وعلي، وأبي، وزيد بن ثابت، وابن مسعود، وأبو الدرداء وأبو موسى الأشعري، كذا ذكرهم الذهبي في طبقات القراء، قال: وقد قرأ على أبيّ جماعة من الصحابة، منهم أبو هريرة وابن عباس وعبد الله بن السائب، وأخذ ابن عباس عن زيد أيضاً، وأخذ عنهم خلق من التابعين.

فممن كان بالمدينة: ابن المسيب، وعروة، وسالم، وعمر بن عبد العزيز، وسليمان وعطاء ابنا يسار، ومعاذ بن الحارث المعروف بمعاذ القاري، وعبد الرحمن بن هرمز الأعرج، وابن شهاب الزهري، ومسلم بن جندب، وزيد بن أسلم.

وبمكة: عبيد بن عمير، وعطاء بن أبي رباح، وطاوس، ومجاهد وعكرمة، وابن أبي مليكة.

وبالكوفة: علقمة، والأسود، ومسروق، وعبيدة، وعمرو بن شرحبيل والحارث بن قيس، والربيع بن خثيم، وعمرو بن ميمون، وأبو عبد الرحمن

السلمي، وزر بن حبيش وعبيد بن فضيلة، وسعيد بن جبير، والنخعي، والشعبي.

وبالبصرة: أبو العالية، وأبو رجاء، ونصر بن عاصم، ويحيى بن يعمر، والحسن، وابن سيرين، وقتادة.

وبالشام: المغيرة بن أبي شهاب المخزومي صاحب عثمان، وخليفة بن سعد صاحب أبي الدرداء.

ثم تجرد قوم، واعتنوا بضبط القراءة أتم عناية، حتى صاروا أئمة يقتدى بهم ويرحل إليهم، فكان بالمدينة: أبو جعفر يزيد بن القعقاع، ثم شيبة بن نصاع، ثم نافع بن نعيم وبمكة: عبد الله بن كثير، وحميد بن قيس الأعرج، ومحمد بن أبي محيصن.

وبالكوفة: يحيى بن وثاب، وعاصم بن أبي النجود، وسليمان الأعمش، ثم حمزة، ثم الكسائي.

وبالبصرة: عبدالله بن أبي إسحاق، وعيسى بن عمر، وأبو عمرو بن العلاء، وعاصم الجحدري، ثم يعقوب الحضرمي.

وبالشام: عبد الله بن عامر، وعطية بن قيس الكلابي، وإسماعيل بن عبد الله بن المهاجر، ثم يحيى بن الحارث الذماري ثم شريح بن يزيد الحضرمي.

واشتهر من هؤلاء في الآفاق الأئمة السبعة:

نافع، وقد أخذ عن سبعين من التابعين، منهم أبو جعفر - وابن كثير وأخذ عن عبد الله بن السائب الصحابي.

وأبو عمرو، وأخذ عن التابعين.

وابن عامر، وأخذ عن أبي الدرداء، وأصحاب عثمان.

وعاصم، وأخذ عن التابعين.

وحمزة، وأخذ عن عاصم والأعمش والسبيعي ومنصور بن المعتمر وغيره والكسائي، وأخذ عن حمزة وأبي بكر بن عياش.

ثم انتشرت القراءات في الأقطار، وتفرقوا أمماً بعد أمم، واشتهر من رواة كل طريق من طرق السبعة راويان:

فعن نافع: قالون وورش عنه.
وعن ابن كثير: قنبل والبزي، عن أصحابه عنه.
وعن أبي عمرو: الدوري والسوسي، عن اليزيدي، عنه.
وعن ابن عامر: هشام وابن ذكوان، عن أصحابه، عنه.
وعن عاصم: أبو بكر بن عياش، وحفص، عنه.
وعن حمزة: خلف وخلاد، عن سليم عنه.
وعن الكسائي: الدوري، وأبو الحارث.

ثم لما اتسع الخرق وكاد الباطل يلتبس بالحق قام جهابذة الأمة وبالغوا في الاجتهاد، وجمعوا الحروف والقراءات، وعزوا الوجوه والروايات، وميزوا الصحيح والمشهور والشاذ بأصول أصّلوها وأركان فصّلوها.

فأول من صنف في القراءات أبو عبيد القاسم بن سلام، ثم أحمد بن جبير الكوفي ثم اسماعيل بن إسحاق المالكي صاحب قالون ثم أبو جعفر بن جرير الطبري، ثم أبو بكر محمد بن أحمد بن عمر الداجوني، ثم أبو بكر بن مجاهد، ثم قام الناس في عصره وبعده بالتأليف في أنواعها، جامعاً ومفرداً، وموجزاً ومسهباً، وأئمة القراءات لا تحصى.

وقد صنف طبقاتهم حافظ الإسلام أبو عبد الله الذهبي ثم حافظ القراءات أبو الخير ابن الجزري.

معرفة المتواتر والمشهور والآحاد والشاذ والموضوع والمدرج

القراءة تنقسم إلى: متواتر وآحاد وشاذ.

وأحسن من تكلم في هذا النوع إمام القراء في زمانه شيخ شيوخ السيوطي أبو الخير ابن الجزري، قال في أول كتابه «النشر»: وكل قراءة وافقت العربية ولو بوجه، ووافقت أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالا، وصح سندها، فهي القراءة الصحيحة التي لا يجوز ردها، ولا يحل إنكارها، بل هي من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن، ووجب على الناس قبولها، سواء كانت عن الأئمة السبعة، أم عن العشرة أم عن غيرهم من الأئمة المقبولين، ومتى اختل ركن من هذه الأركان الثلاثة أطلق عليها ضعيفة أو شاذة أو باطلة، سواء كانت عن السبعة أم عمن هو أكبر منهم. هذا هو الصحيح عند أئمة التحقيق من السلف والخلف ثم قال ابن الجزري: فقولنا في الضابط: «ولو بوجه» نريد به وجهاً من وجوه النحو، سواء كان أفصح أم فصيحاً، مجمعاً عليه أم مختلفاً فيه اختلافاً لا يضر مثله، إذا كانت القراءة مما شاع وذاع، وتلقاه الأئمة بالإسناد الصحيح، إذ هو الأصل الأعظم، والركن الأقوم. وكم من قراءة أنكرها بعض أهل النحو أو كثير منهم، ولم يعتبر إنكارهم كإسكان: «بارئكم» و«يأمركم» وخفض «والأرحام».

ثم قال ابن الجزري: ونعني بموافقة أحد المصاحف ما كان ثابتاً في بعضها دون بعض، كقراءة ابن عامر: «قالوا اتخذ الله» في البقرة بغير واو و«بالزبر وبالكتاب» بإثبات الباء فيهما، فإن ذلك ثابت في المصحف الشامي، وكقراءة ابن كثير «تجري من تحتها الأنهار» في آخر براءة. بزيادة «من» فإنها ثابت في المصحف المكي، ونحو ذلك، فإن لم تكن في شيء من المصاحف العثمانية فشاذ لمخالفتها الرسم المجمع عليه.

قال: وقولنا: «وصح سندها» نعني به أن يروي تلك القراءة العدل الضابط عن مثله، وهكذا حتى ينتهي، وتكون مع ذلك مشهورة عند أئمة هذا الشأن، غير معدودة عندهم من الغلط أو مما شذ بها بعضهم.

وقد أتقن الإمام ابن الجزري هذا الفصل جداً، وقد تحرر منه أن القراءات أنواع:

الأول: المتواتر وهو ما نقله جمع لا يمكن تواطؤهم على الكذب، عن مثلهم إلى منتهاه، وغالب القراءات كذلك.

الثاني: المشهور، وهو ما صح سنده ولم يبلغ درجة التواتر، ووافق العربية والرسم، واشتهر عند القراء، فلم يعدوه من الغلط ولا من الشذوذ، ويقرأ به على ما ذكره ابن الجزري. ومثاله ما اختلفت الطرق في نقله عن السبعة، فرواه بعض الرواة عنهم دون بعض، وأمثلة ذلك كثيرة في فرش الحروف من كتب القراءات كالذي قبله، ومن أشهر ما صنف في ذلك التيسير للداني، وقصيدة الشاطبي، وأوعية النشر في القراءات العشر، وتقريب النشر، كلاهما لابن الجزري.

الثالث: الآحاد، وهو ما صح سنده وخالف الرسم أو العربية أو لم يشتهر الاشتهار المذكور، ولا يقرأ به، وقد عقد الترمذي في جامعه والحاكم في مستدركه لذلك باباً أخرجا فيه شيئاً كثيراً صحيح الإسناد، من ذلك ما أخرجه الحاكم من طريق عاصم الجحدري عن أبي بكرة أن النبي ﷺ قرأ: «متكئين على رفارف خضر وعباقري حسان».

وأخرج من حديث أبي هريرة أنه ﷺ: «فلا تعلم نفس ما أُخفي لهم من قرات أعين».

وأخرج عن ابن عباس أنه ﷺ قرأ: «لقد جاءكم رسول من أنفسكم» بفتح الفاء. وأخرج عن عائشة أنه ﷺ قرأ: «فروح وريحان» يعني بضم الراء.

الرابع: الشاذ، وهو ما لم يصح سنده، وفيه كتب مؤلفة، من ذلك قراءة «ملك يوم الدين» بصيغة الماضي، ونصب «يوم» و«إياك يعبد» ببنائه للمفعول.

الخامس: الموضوع كقراءات الخزاعي.

ثم هناك نوع سادس يشبه من أنواع الحديث المدرج، وهو ما زيد في القراءات على وجه التفسير، كقراءة سعد بن أبي وقاص «وله أخ أو أخت من أم» أخرجها سعيد بن منصور.

وقراءة ابن عباس «ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم في مواسم الحج» أخرجها البخاري.

وقراءة ابن الزبير «ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويستعينون بالله على ما أصابهم» قال عمرو فما أدري: أكانت قراءته أم فسّر؟ أخرجه سعيد بن منصور، وأخرجه الأنباري، وجزم بأنه تفسير.

وأخرج عن الحسن أنه كان يقرأ: «وإن منكم إلا واردها» «والورود الدخول». قال الأنباري: قوله: «الورود الدخول» تفسير من الحسن لمعنى الورود. وغلط فيه بعض الرواة فألحقه بالقرآن.

تنبيهات

الأول: ومن المشكل ما نقل: أن ابن مسعود كان يُنكر كون سورة الفاتحة والمعوذتين من القرآن، وهو في غاية الصعوبة، لأنا إن قلنا: إن النقل المتواتر كان حاصلا في عصر الصحابة يكون ذلك من القرآن، فإنكاره يوجب الكفر، وإن قلنا: لم يكن حاصلا في ذلك الزمان، فيلزم أن القرآن ليس بمتواتر في الأصل، قال: والأغلب على الظن أن نقل هذا عن ابن مسعود نقل باطل، وبه يحصل الخلاص عن هذه العقدة، قال القاضي أبوبكر لم

يصح عنه أنها ليست من القرآن ولا حفظ عنه. إنما حكها وأسقطها من مصحفه إنكاراً لكتابتها لا جحداً لكونها قرآناً، لأنه كانت السنة عنده ألا يكتب في المصحف إلا ما أمر النبي ﷺ بإثباته فيه، ولم يجده كتب ذلك ولا سمعه أمر به.

وقال النووي: وما نقل عن ابن مسعود باطل ليس بصحيح.

قال ابن حجر بعد أن صحح روايات إنكار ابن مسعود : فقول من قال إنه كذب عليه مردود ، والطعن في الروايات الصحيحة بغير مستند لا يقبل ، بل الروايات صحيحة والتأويل محتمل .

قال ابن قتيبة في مشكلة القرآن: ظن ابن مسعود أن المعوذتين ليستا من القرآن لأنه رأى النبي ﷺ يعوذ بهما الحسن والحسين فأقام على ظنه، ولا نقول إنه أصاب في ذلك وأخطأ المهاجرون والانصار.

التنبيه الثاني : المراد من قول النبي صلى الله عليه وسلم : «إن القرآن أنزل على سبعة أحرف» والحرف بمعنى الوجه أن القرآن أنزل على هذه التوسعة بحيث لاتتجاوز وجوه الاختلاف في أداء اللفظ الواحد سبعة أوجه .

التنبيه الثالث : قال مكي: من ظن أن قراءة هؤلاء القراء كنافع وعاصم هي الأحرف السبعة التي في الحديث فقد غلط غلطاً عظيماً. قال: ويلزم من هذا ان ما خرج عن قراءة هؤلاء السبعة مما ثبت عن الأئمة وغيرهم ووافق خط المصحف، ألا يكون قرآناً، وهذا غلط عظيم. والسبب في الاقتصار على السبعة - مع أن في أئمة القراء من هو أجل منهم قدراً أو مثلهم أكثر من عددهم - أن الرواة عن الأئمة كانوا كثيراً جداً، فلما تقاصرت الهمم، اقتصروا مما يوافق خط المصحف على ما يسهل حفظه وتنضبط القراءة به، فنظروا إلى من اشتهر بالثقة والأمانة وطول العمر في ملازمة القراءة به والاتفاق على الأخذ عنه فأفردوا من كل مصر إماماً واحداً، ولم يتركوا مع ذلك نقل ما كان

عليه الأئمة غير هؤلاء من القراءات ولا القراءة به، كقراءة يعقوب وأبي جعفر وشيبة وغيرهم.

وأصح القراءات سنداً نافع وعاصم، وأفصحها أبو عمرو والكسائي. واعلم أن الخارج عن السبع المشهورة على قسمين: منه ما يخالف رسم المصحف فهذا لا شك فيه أنه لا تجوز قراءته لا في الصلاة ولا في غيرها.

ومنه ما لا يخالف رسم المصحف، ولم تشتهر القراءة به، وإنما ورد من طريق غريب لا يعول عليها، وهذا يظهر المنع من القراءة به أيضاً. ومنه ما اشتهر عند أئمة هذا الشأن القراءة به قديماً وحديثاً، فهذا لا وجه للمنع منه، ومن ذلك قراءة يعقوب وغيره.

التنبيه الرابع: باختلاف القراءات يظهر الاختلاف في الأحكام، ولهذا بنى الفقهاء نقض وضوء الملموس وعدمه على اختلاف القراءة في «لمستم» و«لامستم» وجواز وطء الحائض عند الانقطاع قبل الغسل وعدمه على الاختلاف في «يطهرن».

كيفية تحمله

ولتحمله وتلقيه وجهان القراءة على الشيخ او السماع من لفظه.

فأما القراءة على الشيخ فهي المستعملة سلفاً وخلفاً، وأما السماع من لفظ الشيخ فيحتمل أن يقال به هنا، لأن الصحابة رضي الله عنهم إنما أخذوا القرآن من النبي ﷺ، لكن لم يأخذ به أحد من القراء، والمنع فيه ظاهر، لأن المقصود هنا كيفية الأداء، وليس كل من سمع من لفظ الشيخ يقدر على الأداء كهيئته، بخلاف الحديث. فإن المقصود فيه المعنى أو اللفظ لا بالهيئات المعتبرة في أداء القرآن، وأما الصحابة فكانت فصاحتهم وطباعهم السليمة تقتضي قدرتهم على الأداء، كما

سمعوه من النبي ﷺ، لأنه نزل بلغتهم. ومما يدل للقراءة على الشيخ عرض النبي ﷺ القرآن على جبريل في رمضان كل عام. ويحكى أن الشيخ شمس الدين بن الجزري لما قدم القاهرة وازدحمت عليه الخلق، لم يتسع وقته لقراءة الجميع فكان يقرأ عليهم الآية، ثم يعيدونها عليه دفعة واحدة، فلم يكتف بقراءته.

وتجوز القراءة على الشيخ ولو كان غيره يقرأ عليه في تلك الحالة إذا كان بحيث لا يخفى عليه حالهم. وقد كان الشيخ علم الدين السخاوي يقرأ عليه اثنان وثلاثة في أماكن مختلفة، ويرد على كل منهم وكذا لو كان الشيخ مشتغلا بشغل آخر كنسخ أو مطالعة.

وأما القراءة من الحفظ فالظاهر أنها ليست بشرط، بل يكتفى ولو من المصحف.

كَيفيّاتُ القِــرَاءَة

للقراءة ثلاث كيفيات:

احداها: التحقيق، وهو إعطاء كل حرف حقه من إشباع المد وتحقيق الهمزة وإتمام الحركات واعتماد الاظهار والتشديدات، وبيان الحروف وتفكيكها وإخراج بعضها من بعض، بالسكت والترتيل والتؤدة وملاحظة الجائز من الوقوف بلا قصر ولا اختلاس ولا إسكان محرك ولا إدغامه، وهو يكون لرياضة الألسن وتقويم الألفاظ.

ويستحب الأخذ به على المتعلمين من غير أن يتجاوز فيه إلى حد الإفراط بتوليد الحروف من الحركات، وتكرير الراءات، وتحريك السواكن، وتطنين النونات بالمبالغة في الغنات، كما قال حمزة لبعض من سمعه يبالغ في ذلك: أما علمت أن ما فوق البياض برص، وما فوق الجعودة قطط، وما فوق القراءة ليست بقراءة.

الثانية: الحدر، بفتح الحاء وسكون الدال المهملتين، وهو إدراج القراءة وسرعتها وتخفيفها بالقصر والتسكين، والاختلاس والبدل والإدغام الكبير، وتخفيف الهمزة، ونحو ذلك مما صحت به الرواية مع مراعاة إقامة الاعراب وتقويم اللفظ، وتمكين الحروف بدون بتر حروف المد، واختلاس أكثر الحركات، وذهاب صوت الغنة والتفريط إلى غاية لا تصلح بها القراءة.

الثالثة: التدوير، وهو التوسط بين المقامين من التحقيق والحدر، وهو الذي ورد عن أكثر الأئمة ممن مد المنفصل، ولم يبلغ فيه الاشباع وهو مذهب سائر القراء، وهو المختار عند أكثر أهل الأداء.

ومن المهات تجويد القرآن، وقد أفرده جماعة كثيرون بالتصنيف

ومنهم الداني وغيره، أخرج عن ابن مسعود انه قال: «جودوا القرآن».

التجويد

قال القراء: التجويد حلية القراءة، وهو إعطاء الحروف حقوقها وترتيبها ورد الحرف إلى مخرجه وأصله، وتلطيف النطق به على كمال هيئته، من غير إسراف ولا تعسف ولا إفراط ولا تكلف، وإلى ذلك أشار ﷺ بقوله: «من أحب أن يقرأ القرآن غضاً كما أنزل، فليقرأه على قراءة ابن ام عبد» - يعني ابن مسعود - وكان رضي الله عنه اعطي حظاً عظيماً في تجويد القرآن، ولا شك أن الأمة كما هم متعبدون بفهم معاني القرآن وإقامة حدوده، هم متعبدون بتصحيح ألفاظه وإقامة حروفه على الصفة المتلقاة من أئمة القراء المتصلة بالحضرة النبوية وقد عد العلماء القراءة بغير تجويد لحناً.

فصل

في كيفية الأخذ بإفراد القراءات وجمعها

الذي كان عليه السلف أخذ كل ختمة برواية، لا يجمعون رواية إلى غيرها إلى سنة خمسمائة، فظهر جمع القراءات في الختمة الواحدة، واستقر عليه العمل، ولم يكونوا يسمحون به إلا لمن أفرد القراءات، وأتقن طرقها، وقرأ لكل قارىء بختمة على حدة، بل إذا كانت للشيخ روايات قرءوا لكل راو بختمة، ثم يجمعون له، وهكذا.

وتساهل قوم، فسمحوا أن يقرأ لكل قارىء من السبعة بختمة سوى نافع وحمزة، فإنهم كانوا يأخذون ختمة لقالون، ثم ختمة لورش، ثم ختمة لخلف، ثم ختمة لخلاد، ولا يسمح أحد بالجمع إلا بعد ذلك، نعم إذا رأوا شخصاً أفرد وجمع على شيخ معتبر، وأجيز وتأهل، وأراد أن

يجمع القراءات في ختمة لا يكلفونه الإفراد لعلمهم بوصوله الى حد المعرفة والإتقان. ثم لهم في الجمع مذهبان:

أحدهما: الجمع بالحرف بأن يشرع في القراءة، فإذا مر بكلمة فيها خلف أعادها بمفردها، حتى يستوفي ما فيها، ثم يقف عليها إن صلحت للوقف، وإلا وصلها بآخر وجه، حتى ينتهي إلى الوقف. وإن كان الخلف يتعلق بكلمتين كالمد المنفصل وقف على الثانية واستوعب الخلاف وانتقل إلى ما بعدها وهذا مذهب المصريين.

الثاني: الجمع بالوقف بأن يشرع بقراءة من قدمه حتى ينتهي إلى وقف، ثم يعود إلى القارئ الذي بعده إلى ذلك الوقف، ثم يعود، وهكذا حتى يفرغ، وهذا مذهب الشاميين، وهو أشد استحضاراً، وأطول زمناً، وأجود مكاناً.

وذكر أبو الحسن القبحاطي في قصيدته وشرحها لجامع القراءات شروطاً سبعة، حاصلها خمسة:

أحدها: حسن الوقف.

ثانيها: حسن الإبتداء.

ثالثها: حسن الأداء.

رابعها: عدم التركيب، فإذا قرأ القارئ لا ينتقل إلى قراءة غيره حتى يتم ما فيها.

الخامس: رعاية الترتيب في القراءة والابتداء بما بدأ به المؤلفون في كتبهم، فيبدأ بنافع قبل ابن كثير، وبقالون قبل ورش.

قال ابن الجزري: والصواب أن هذا ليس بشرط بل مستحب.

وأما قدر ما يقرأ حال الأخذ، فقد كان الصدر الأول لا يزيدون على عشر آيات لكائن من كان، وأما من بعدهم فرأوه بحسب قوة الآخذ.

فائدة

ادّعى ابن خير الإجماع على أنه ليس لأحد أن ينقل حديثاً عن النبي ﷺ، ما لم يكن له به رواية، ولو بالإجازة، فهل يكون حكم القرآن كذلك، فليس لأحد أن ينقل آية أو يقرأها ما لم يقرأها على شيخ، قال السيوطي: لم أر فيه نقلا، ولذلك وجه من حيث إن الاحتياط في أداء ألفاظ القرآن أشد منه في ألفاظ الحديث، ولعدم اشتراطه فيه وجه، من حيث أن اشتراطه ذلك في الحديث، إنما هو لخوف أن يدخل في الحديث ما ليس منه، أو يتقول على النبي ﷺ ما لم يقله، والقرآن محفوظ متلقى متداول ميسر، وهذا هو الظاهر.

فائدة ثانية

الإجازة من الشيخ غير شرط في جواز التصدي للإقراء والإفادة فمن علم من نفسه الأهلية جاز له ذلك، وإن لم يجزه أحد، وعلى ذلك السلف الأولون والصدر الصالح، وكذلك في كل علم وفي الإقراء والإفتاء خلافاً لما يتوهمه الأغبياء من اعتقاد كونها شرطاً، وإنما اصطلح الناس على الإجازة، لأن أهلية الشخص لا يعلمها غالباً من يريد الأخذ عنه من المبتدئين ونحوهم لقصور مقامهم عن ذلك، والبحث عن الأهلية قبل الأخذ شرط، فجعلت الإجازة كالشهادة من الشيخ للمجاز بالأهلية.

استحباب الاكثار من قراءة القرآن

يستحب الإكثار من قراءة القرآن وتلاوته، قال تعالى مثنياً على من كان ذلك دأبه: «يتلون آيات الله آناءَ الليل» وفي الصحيحين من حديث ابن عمر: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار» وروى الترمذي من حديث ابن مسعود

«من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها».
وأخرج من حديث ابي سعيد عن النبي ﷺ: «يقول الرب سبحانه وتعالى: «من شغله القرآن وذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين، وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على سائر خلقه».

وأخرج مسلم من حديث ابي أمامة: «اقرءوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لاصحابه».

وأخرج البيهقي من حديث عائشة: «البيت الذي يقرأ فيه القرآن يتراءى لأهل السماء كما تتراءى النجوم لأهل الأرض».

وأخرج من حديث أنس: «نوروا منازلكم بالصلاة وقراءة القرآن».

وأخرج من حديث النعمان بن بشير: «أفضل عبادة أمتي قراءة القرآن.

وأخرج من حديث سمرة بن جندب: «كل مؤدب يحب أن تؤتى مأدبته ومأدبة الله القرآن، فلا تهجروه».

عادات السلف في قدر القراءة:

وقد كان للسلف في قدر القراءة عادات فقد جاء أن بعضهم كان يختم القرآن في اليوم والليلة ثلاث مرات وبعضهم مرتين وبعضهم مرة وقيل غير ذلك.

وقد ذمت عائشة ذلك، فأخرج ابن أبي داود عن مسلم بن مخراق قال قلت لعائشة: إن رجالا يقرأ أحدهم القرآن في ليلة مرتين أو ثلاثا؛

فقالت: قرءوا أو لم يقرءوا، كنت أقوم مع رسول الله ﷺ ليلة التمام، فيقرأ بالبقرة وآل عمران والنساء، فلا يمر بآية فيها استبشار الا دعا ورغب، ولا بآية فيها تخويف إلا دعا واستعاذ».

ويلي ذلك من كان يختم في ليلتين، ويليه من كان يختم في كل ثلاث وهو حسن.

وكره جماعات الختم في أقل من ذلك، لما رَوى أبو داود والترمذي وصحَّحه من حديث عبد الله بن عمر مرفوعاً: «لا يفقه من قرأ القرآن في أقل من ثلاث».

وأخرج ابن أبي داود وسعيد بن منصور عن ابن مسعود موقوفاً، قال: «لا تقرءوا القرآن في أقل من ثلاث».

وأخرج أبو عبيد عن معاذ بن جبل انه كان يكره أن يقرأ القرآن في أقل من ثلاث».

وأخرج أحمد وأبو عبيد عن سعيد بن المنذر - وليس له غيره - قال: قلت: يا رسول الله، اقرأ القرآن في ثلاث؟ قال: نعم، إن استطعت.

ويليه من ختم في أربع، ثم في خمس، ثم في ست، ثم في سبع، وهذا أوسط الأمور وأحسنها، وهو فعل الأكثرين من الصحابة وغيرهم.

وأخرج الشيخان عن عبد الله بن عمرو: قال: قال لي رسول الله ﷺ: «إقرأ القرآن في شهر» قلت: إني أجد قوة، قال: إقرأه في عشر، قلت: إني أجد قوة، قال: اقرأه في سبع ولا تزد على ذلك».

وأخرج أبو عبيد وغيره من طريق واسع بن حبان، عن قيس ابن أبي صعصعة - وليس له غيره - انه قال: يا رسول الله، في كم أقرأ القرآن؟ قال: في خمسة عشر، قلت: إني أجد أقوى من ذلك، قال: إقرأه في جمعة.

ويلي ذلك: من ختم في ثمان، ثم في عشر، ثم في شهر، ثم في شهرين أخرج ابن أبي داود، عن مكحول، قال: كان أقوياء أصحاب رسول

الله ﷺ يقرءون القرآن في سبع، وبعضهم في شهر وبعضهم في شهرين، وبعضهم في أكثر من ذلك.

وقال أبو الليث في البستان: ينبغي للقارئ أن يختم في السنة مرتين إن لم يقدر على الزيادة.

وقد روى الحسن بن زياد عن أبي حنيفة، أنه قال: من قرأ القرآن في كل سنة مرتين، فقد أدى حقه لأن النبي ﷺ عرض على جبريل في السنة التي قبض فيها مرتين.

وقال النووي في الأذكار: المختار أن ذلك يختلف باختلاف الأشخاص، فمن كان يظهر له بدقيق الفكر لطائف ومعارف فليقتصر على قدر يحصل له معه كمال فهم ما يقرأ، وكذلك من كان مشغولا بنشر العلم، أو فصل الحكومات، أو غير ذلك من مهمات الدين والمصالح العامة، فليقتصر على قدر لا يحصل بسببه إخلال بما هو مشتغل به، ولا فوات كماله، وإن لم يكن من هؤلاء المذكورين فليكثر ما أمكنه من غير خروج إلى حد الملل أو الهذرمة في القراءة.

آداب تلاوة القرآن

يستحب الوضوء لقراءة القرآن لأنه أفضل الأذكار، وقد كان ﷺ يكره أن يذكر الله إلا على طهر، كما ثبت في الحديث.

وتسن القراءة في مكان نظيف، وأفضله المسجد، وكره قوم القراءة في الحمام والطريق.

ويستحب أن يجلس مستقبلا متخشعاً بسكينة ووقار مطرقاً رأسه.

ويسن أن يستاك تعظيماً وتطهيراً، وقد روى ابن ماجه عن علي موقوفاً والبزار بسند جيد عنه مرفوعاً: «إن أفواهكم طرق للقرآن فطيبوها بالسواك».

ويسن التعوذ قبل القراءة، قال تعالى: « فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ». أي إذا أردت قراءته.

قال النووي: وصفته المختارة: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» وكان جماعة من السلف يزيدون: «السميع العليم».

وعن حميد بن قيس: «أعوذ بالله القادر، من الشيطان الغادر».

وعن أبي السمال :«أعوذ بالله القوي، من الشيطان الغوي».

وعن قوم: «أعوذ بالله العظيم، من الشيطان الرجيم».

وعن آخرين: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، إن الله هو السميع العليم». وفيها ألفاظ أخر. قال الحلواني في جامعه: ليس للاستعاذة حد ينتهى إليه، من شاء زاد ومن شاء نقص.

وليحافظ على قراءة البسملة أول كل سورة، غير براءة، لأن أكثر العلماء على أنها آية فإذا أخل بها كان تاركاً لبعض الختمة عند الأكثرين، فإذا قرأ من أثناء سورة استحبت له أيضاً، نص عليه الشافعي.

ويسن الترتيل في قراءة القرآن، قال تعالى: «ورتل القرآن ترتيلا» وروى أبو داود وغيره عن أم سلمة، أنها نعتت قراءة النبي ﷺ «قراءة مفسرة حرفاً حرفاً».

وفي البخاري عن أنس، أنه سئل عن قراءة رسول الله ﷺ فقال: «كانت مدا، ثم قرأ: بسم الله الرحمن الرحيم يمد «الله» ويمد «الرحمن»، ويمد «الرحيم».

وفي الصحيحين عن ابن مسعود، أن رجلا قال له: إني أقرأ المفصل في ركعة واحدة، فقال: «هذّا كهذّ الشعر، إن قوماً يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم، ولكن إذا وقع في القلب فرسخ فيه نفع».

وأخرج الآجري في حملة القرآن، عن ابن مسعود قال: لا تنثروه نثر

الدقل ولا تهذّوه هذّ الشعر، قفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب ولا يكون همّ أحدكم آخر السورة».

وأخرج من حديث ابن عمر مرفوعاً: «يقال لصاحب القرآن إقرأ وارق في الدرجات ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية كنت تقرأها».

قال في شرح المهذب: واتفقوا على كراهة الإفراط في الإسراع.

قالوا: وقراءة جزء بترتيل أفضل من قراءة جزأين في قدر ذلك الزمن بلا ترتيل.

قالوا: واستحباب الترتيل للتدبر، لأنه أقرب إلى الإجلال والتوقير وأشد تأثيراً في القلب.

واختلف: هل الأفضل الترتيل وقلة القراءة، أو السرعة مع كثرتها؟ وأحسن بعض أئمتنا، فقال: إن ثواب قراءة الترتيل أجل قدراً، وثواب الكثرة أكثر عدداً لأن بكل حرف عشر حسنات.

وفي البرهان للزركشي: كمال الترتيل تفخيم ألفاظه والإبانة عن حروفه، وألا يدغم حرف في حرف.

وقيل: هذا أقله وأكمله أن يقرأه على منازله، فإن قرأ تهديداً لفظ به لفظ التهديد، أو تعظيما لفظ به على التعظيم.

ويسن القراءة بالتدبر والتفهم، فهو المقصود الأعظم والمطلوب الأهم، وبه تنشرح الصدور، وتستنير القلوب قال تعالى: «كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته».

وقال: «أفلا يتدبرون القرآن» وصفة ذلك أن يشغل قلبه بالتفكر في معنى ما يلفظ به، فيعرف معنى كل آية ويتأمل الأوامر والنواهي، ويعتقد قبول ذلك.

فإن كان مما قصر عنه فيما مضى اعتذر واستغفر، وإذا مر بآية رحمة إستبشر وسأل، أو عذاب أشفق وتعوذ، أو تنزيه نزه وعظم، أو دعاء تضرع وطلب.

أخرج مسلم عن حذيفة، قال: صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة فافتتح البقرة فقرأها، ثم آل عمران فقرأها، ثم النساء فقرأها يقرأ مترسلا، إذا مرّ بآية فيها تسبيح سبح، وإذا مرّ بسؤال سأل، وإذا مرّ بتعوذ تعوذ.

ومن التدبر أن يجيب نداء القرآن إذا اقتضى ذلك، وهو ما أشار إليه الحديث الذي أخرجه أبو داود والترمذي: «من قرأ والتين والزيتون فانتهى إلى آخرها، فليقل: بلى وأنا على ذلك من الشاهدين، ومن قرأ لا أقسم بيوم القيامة فانتهى إلى آخرها: «أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى» فليقل بلى: ومن قرأ والمرسلات، فبلغ: «فبأي حديث بعده يؤمنون» فليقل: آمنا بالله».

وأخرج احمد وأبو داود عن ابن عباس، أن النبي ﷺ كان إذا قرأ سبح اسم ربك الأعلى، قال: سبحان ربي الأعلى».

وأخرج الترمذي والحاكم، عن جابر، قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه، فقرأ عليهم سورة الرحمن من أوّلها إلى آخرها، فسكتوا، فقال: لقد قرأتها على الجن، فكانوا أحسن مردوداً منكم، كنت كلما أتيت على قوله: «فبأي آلاء ربكما تكذبان» قالوا: ولا بشيء من نعمك ربنا نكذب، فلك الحمد.

وأخرج ابن مردويه والديلمي وابن أبي الدنيا في الدعاء وغيرهم بسند ضعيف جداً، عن جابر أن النبي ﷺ قرأ: «وإذا سألك عبادي عني فإني قريب...» الآية، فقال: اللهم أمرت بالدعاء وتكفلت بالإجابة، لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك، والملك لا شريك لك، أشهد أنك فرد أحد صمد، لم تلد ولم تولد

ولم يكن لك كفوًا أحد، وأشهد أن وعدك حق ولقاءك حق، والجنة حق والنار حق، والساعة آتية لا ريب فيها، وأنك تبعث من في القبور.

وأخرج أبو داود وغيره عن وائل بن حجر، سمعت النبي ﷺ قرأ: «ولا الضالين» فقال: «آمين» يمد بها صوته.

وهو معنى إجابة القرآن.

وأخرجه الطبراني بلفظ قال: «آمين» ثلاث مرات وأخرجه البيهقي بلفظ: قال: «رب اغفر لي آمين».

قال النووي: ومن الآداب إذا قرأ نحو: «وقالت اليهود عزير ابن الله» «وقالت اليهود يد الله مغلولة» أن يخفض بها صوته. كذا كان النخعي يفعل.

ويستحب البكاء عند قراءة القرآن والتباكي لمن لا يقدر عليه والحزن والخشوع، قال تعالى: «ويخرون للأذقان يبكون».

وفي الصحيحين حديث قراءة ابن مسعود على النبي ﷺ: وفيه: «فإذا عيناه تذرفان».

وفي الشعب للبيهقي عن سعد بن مالك مرفوعاً: «إن هذا القرآن نزل بحزن وكآبة فإذا قرأتموه فابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا» وفيه من مرسل عبد الملك بن عمير، أن رسول الله ﷺ قال: «إني قارىء عليكم سورة، فمن بكى فله الجنة، فإن لم تبكوا فتباكوا».

وفي مسند أبي يعلي حديث: «إقرءوا القرآن بالحزن فإنه نزل بالحزن.

وعند الطبراني: «أحسن الناس قراءة من اذا قرأ القرآن يتحزن به».

قال في شرح المهذب: «وطريقه في تحصيل البكاء أن يتأمل ما يقرأ من التهديد والوعيد الشديد، والمواثيق والعهود ثم يفكر في تقصيره فيها، فإن لم يحضره عند ذلك حزن وبكاء فليبك على فقد ذلك فإنه من المصائب».

ويسن تحسين الصوت بالقراءة وتزيينها لحديث ابن حبان وغيره: «زينوا القرآن بأصواتكم» وفي لفظ عند الدارمي: «حسنوا القرآن بأصواتكم، فإن الصوت الحسن يزيد القرآن حسناً».

وأخرج البزار وغيره حديث: «حسن الصوت زينة القرآن» وفيه أحاديث صحيحة كثيرة، فإن لم يكن حسن الصوت حسنه ما استطاع بحيث لا يخرج إلى حد التمطيط والغناء لما جاء في الحديث: «اقرءوا القرآن بلحون العرب وأصواتها، وإياكم ولحون أهل الكتابين وأهل الفسق، فإنه سيجيء أقوام يرجعون بالقرآن ترجيع الغناء والرهبانية، لا يجاوز حناجرهم مفتونة قلوبهم وقلوب من يعجبهم شأنهم» أخرجه الطبراني والبيهقي.

قال النووي: ويستحب طلب القراءة من حسن الصوت والإصغاء إليها، للحديث الصحيح، ولا بأس باجتماع الجماعة في القراءة ولا بإدارتها، وهي أن يقرأ بعض الجماعة قطعة ثم البعض قطعة بعدها.

ويستحب قراءته بالتفخيم لحديث الحاكم: «نزل القرآن بالتفخيم» قال الحليمي: ومعناه أنه يقرؤه على قراءة الرجال ولا يخضع الصوت فيه ككلام النساء.

قال: ولا يدخل في هذا كراهة الإمالة التي هي اختيار بعض القراء وقد يجوز أن يكون القرآن نزل بالتفخيم فرخص مع ذلك في إمالة ما يحسن إمالته.

رفع الصوت بالقراءة:

وردت أحاديث تقتضي استحباب رفع الصوت بالقراءة، وأحاديث تقتضي الإسرار وخفض الصوت، فمن الأول حديث الصحيحين: «ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به».

ومن الثاني حديث أبي داود والترمذي والنسائي: الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة والمسرّ بالقرآن كالمسرّ بالصدقة» قال: النووي: والجمع بينهما أن الاخفاء أفضل، حيث خاف الرياء، أو تأذى مصلون أو نيام بجهره، والجهر أفضل في غير ذلك، لأن العمل فيه أكثر، ولأن فائدته تتعدى إلى السامعين ولأنه يوقظ قلب القارئ، ويجمع همه إلى الفكر، ويصرف سمعه إليه، ويطرد النوم، ويزيد في النشاط. ويدل لهذا الجمع حديث أبي داود بسند صحيح، عن أبي سعيد: اعتكف رسول الله ﷺ في المسجد، فسمعهم يجهرون بالقراءة، فكشف الستر، وقال: ألا إن كلكم مناج لربه، فلا يؤذين بعضكم بعضاً، ولا يرفع بعضكم على بعض في القراءة».

وقال بعضهم: يستحب الجهر ببعض القراءة والاسرار ببعضها لأن المسرّ قد يمل فيأنس بالجهر، والجاهر قد يكل فيستريح بالإسرار.

القراءة في المصحف:

القراءة في المصحف أفضل من القراءة من حفظه، لأن النظر فيه عبادة مطلوبة.

قال النووي: هكذا قاله أصحابنا والسلف أيضاً. ولم أر فيه خلافاً، قال ولو قيل إنه يختلف باختلاف الأشخاص فيختار القراءة فيه لمن استوى خشوعه وتدبره في حالة القراءة فيه ومن الحفظ، ويختار القراءة من الحفظ لمن يكمل بذلك خشوعه ويزيد على خشوعه وتدبره لو قرأ من المصحف، لكان هذا قولا حسناً، قال السيوطي: ومن أدلة القراءة في المصحف

ما اخرجه الطبراني والبيهقي في الشعب من حديث أوس الثقفي مرفوعاً: «قراءة الرجل في غير المصحف ألف درجة، وقراءته في المصحف تضاعف ألفي درجة» وأخرج أبو عبيد بسند ضعيف: «فضل قراءة القرآن نظراً، على من يقرؤه ظاهراً كفضل الفريضة على النافلة».

وأخرج البيهقي عن ابن مسعود مرفوعاً: «من سرَّه أن يحب الله ورسوله فليقرأ في المصحف، وقال: إنه منكر.

وأخرج بسند حسن عنه موقوفاً: «أديموا النظر في المصحف».

ومن آداب القراءة أنه: إذا ارتج على القارىء فلم يدر ما بعد الموضع الذي انتهى إليه، فسأل عنه غيره، فينبغي له أن يتأدب بما جاء عن ابن مسعود والنخعي وبشير بن أبي مسعود، قالوا: إذا سأل أحدكم أخاه عن آية، فليقرأ ما قبلها ثم يسكت، ولا يقول كيف كذا وكذا، فإنه يلبس عليه، انتهى.

ومن آداب القراءة أن يقرأ على ترتيب المصحف، قال في شرح المهذب: لأن ترتيبه لحكمة، فلا يتركها إلا فيما ورد فيه الشرع كصلاة صبح يوم الجمعة بآلم تنزيل وهل أتى ونظائره، فلو فرق السور أو عكسها جاز وترك الأفضل. قال: وأما قراءة السورة من آخرها إلى أولها فمتفق على منعه، لأنه يذهب بعض نوع الإعجاز، ويزيل حكمة الترتيب..

قلت: وفيه أثر، أخرج الطبراني بسند جيد، عن ابن مسعود أنه سئل عن رجل يقرأ القرآن منكوساً، قال: ذاك منكوس القلب.

وأما خلط سورة بسورة، فعد الحليمي تركه من الآداب، لما أخرجه أبو عبيد عن سعيد بن المسيب، أن رسول الله ﷺ مرّ ببلال وهو يقرأ

من هذه السورة ومن هذه السورة، فقال: يا بلال مررت بك وأنت تقرأ من هذه السورة ومن هذه السورة، قال: أَخلط الطيب بالطيب، فقال: «إقرأ السورة على وجهها. أو قال - على نحوها» مرسل صحيح، وهو عند أَبي داود موصول عن أَبي هريرة بدون آخره.

وأَخرجه أَبو عبيد من وجه آخر، عن عمر مولى عَفِرة، أَن النبي ﷺ قال لبلال: «إذا قرأت السورة فانفذها».

وقال حدثنا معاذ عن ابن عون، قال: سألت ابن سيرين عن الرجل يقرأ من السورة آيتين ثم يدعها، ويأخذ في غيرها، قال ليتق أَحدكم أَن يأثم إثماً كبيراً وهو لا يشعر.

وأَخرج عن ابن مسعود، قال: إذا ابتدأت في سورة، فأردت - أن تتحول منها إلى غيرها فتحول إلى «قل هو الله أَحد» فإذا ابتدأت فيها فلا تتحول منها حتى تختمها.

وأَخرج عن ابن أَبي الهذيل قال: كانوا يكرهون أَن يقرؤا بعض الآية ويدعوا بعضها.

قال أَبو عبيد: الأَمر عندنا على كراهة قراءة الآيات المختلفة كما أَنكر رسول الله ﷺ على بلال، وكما أَنكره ابن سيرين.

وأَما حديث عبد الله، فوجهه عندي أَن يبتدىء الرجل في السورة يريد إتمامها، ثم يبدو له في أخرى، فأَما من ابتدأ القراءة وهو يريد التنقل من آية إلى آية وترك التأليف لآي القرآن فإنما يفعله من لا علم له، لأَن الله لو شاء لأَنزله على ذلك. أهـ.

قال الحليمي: يسن استيفاء كل حرف أثبته قارىء ليكون قد أتى على جميع ما هو قرآن، وقال ابن الصلاح والنووي: إذا ابتدأ بقراءة أحد من القراء فينبغي الا يزال على تلك القراءة ما دام الكلام

مرتبطاً، فإذا انقضى ارتباطه، فله أن يقرأ بقراءة اخرى. والأولى دوامه على الأولى في هذا المجلس.

ويسن الاستماع لقراءة القرآن وترك اللغط والحديث بحضور القراءة، قال تعالى: «وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون».

ويسن السجود عند قراءة آية السجدة.

قال النووي: الأوقات المختارة للقراءة، أفضلها ما كان في الصلاة ثم الليل، ثم نصفه الأخير، وهي بين المغرب والعشاء محبوبة، وأفضل النهار بعد الصبح. ولا تكره في شيء من الأوقات لمعنى فيه، وأما ما رواه ابن أبي داود عن معاذ بن رفاعة، عن مشائخه أنهم كرهوا القراءة بعد العصر - وقالوا: هو دراسة يهود - فغير مقبول، ولا أصل له ويختار من الأيام يوم عرفة ثم الجمعة، ثم الاثنين، والخميس ومن الأعشار العشر الأخير من رمضان، والأول من ذي الحجة ومن الشهور رمضان.

ويختار لابتدائه ليلة الجمعة، ولختمه ليلة الخميس، فقد روى ابن أبي داود، عن عثمان بن عفان، أنه كان يفعل ذلك.

والأفضل الختم أول النهار أو أول الليل، لما رواه الدارمي بسند حسن عن سعد بن أبي وقاص، قال: إذا وافق ختم القرآن أول الليل صلّت عليه الملائكة حتى يصبح وإن وافق ختمه أول النهار صلت عليه الملائكة حتى يمسي قال في الإحياء: ويكون الختم أول النهار في ركعتي الفجر، وأول الليل في ركعتي سنة المغرب.

ويسن صوم يوم الختم، أخرجه ابن أبي داود عن جماعة من التابعين، وأن يحضر أهله وأصدقاءه. أخرج الطبراني عن أنس، أنه كان إذا ختم القرآن جمع أهله ودعا.

وأخرج ابن أبي داود عن الحكم بن عتيبة، قال: أرسل إليّ مجاهد وعنده ابن أبي أمامة، وقالا: إنا أرسلنا إليك لأنا أردنا أن نختم القرآن، والدعاء يستجاب عند ختم القرآن.

وأخرج عن مجاهد، قال: كانوا يجتمعون عند ختم القرآن ويقول: عنده تنزل الرحمة.

ويستحب التكبير من الضحى إلى آخر القرآن، وهي قراءة المكيين أخرج البيهقي في الشعب وابن خزيمة من طريق ابن أبي بزة سمعت عكرمة بن سليمان قال: قرأت على إسماعيل بن عبد الله المكي فلما بلغت الضحى، قال كبّر حتى تختم، فإني قرأت على عبد الله بن كثير، فأمرني بذلك وقال: قرأت على مجاهد فأمرني بذلك. وأخبر مجاهد، أنه قرأ على ابن عباس، فأمره بذلك، وأخبر ابن عباس أنه قرأ على أبيّ بن كعب فأمره بذلك، كذا أخرجناه موقوفا، ثم أخرجه البيهقي من وجه آخر عن ابن أبي بزة مرفوعاً.

وأخرجه من هذا الوجه - أعني المرفوع - الحاكم في مستدركه وصححه، وله طرق كثيرة عن البزي.

وعن موسى بن هارون قال: قال لي البزي: قال لي محمد بن إدريس الشافعي: إن تركت التكبير فقدت سنة من سنن نبيك، قال الحافظ عماد الدين بن كثير: وهذا يقتضي تصحيحه للحديث.

ويسن إذا فرغ من الختمة أن يشرع في أخرى عقب الختم لحديث الترمذي وغيره: «أحب الأعمال إلى الله الحال المرتحل، الذي يضرب من أول القرآن إلى آخره، كلما حل ارتحل».

وأخرج الدارمي بسند حسن، عن ابن عباس، عن أُبيّ بن كعب، أن

النبي ﷺ كان إذا قرأ: «قل أعوذ برب الناس» افتتح من الحمد، ثم قرأ من البقرة إلى: «أولئك هم المفلحون» ثم دعا بدعاء الختمة، ثم قام.

ويكره قطع القراءة لمكالمة أحد، قال الحليمي: لأن كلام الله لا ينبغي أن يؤثر عليه كلام غيره.

وأيده البيهقي بما في الصحيح: كان ابن عمر إذا قرأ لم يتكلم حتى يفرغ منه - ويكره أيضاً الضحك والعبث والنظر إلى ما يلهي -.

ولا يجوز قراءة القرآن بالعجمية مطلقاً، سواء أحسن العربية أم لا في الصلاة أم خارجها. ولا تجوز القراءة بالشاذ: نقل ابن عبد البر الإجماع على ذلك لكن ذكر موهوب الجزري جوازها في غير الصلاة، قياساً على رواية الحديث بالمعنى.

ويكره اتخاذ القرآن معيشة يكتسب بها، وأخرج الآجري من حديث عمران بن الحصين مرفوعاً: «من قرأ القرآن، فليسأل الله به، فإنه سيأتي قوم يقرءون القرآن يسألون الناس به».

ويكره أن يقول: نسيت آية كذا، بل أُنسيتها، لحديث الصحيحين في النهي عن ذلك. ونسيانه كبيرة لحديث ابي داود وغيره: عرضت عليّ ذنوب أمتي فلم أر ذنبا أعظم من سورة من القرآن أو آية أوتيها رجل ثم نسي.

الاقتباس وما جرى مجراه

الاقتباس تضمين الشعر أو النثر بعض القرآن، لا على أنه منه بألا يقال فيه قال الله تعالى ونحوه، فإن ذلك حينئذ لا يكون اقتباساً. وقد اشتهر عن المالكية تحريمه وتشديد النكير على فاعله.

وقد تعرض له جماعة من المتأخرين، فسئل عنه الشيخ عز الدين عبد

السلام، فأجازه، واستدل له بما ورد عنهﷺ من قوله في الصلاة وغيرها: «وجهت وجهي» إلى آخره وقوله «اللهم فالق الاصباح وجاعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً اقض عني الدين، واغنني من الفقر».

وفي شرح بديعية ابن حجة: الاقتباس ثلاثة أقسام: مقبول ومباح ومردود.

فالأول: ما كان في الخطب والمواعظ والعهود.

والثاني: ما كان في الغزل والرسائل والقصص.

والثالث: على ضربين: أحدهما ما نسبه الله إلى نفسه ونعوذ بالله ممن ينقله إلى نفسه، كما قيل عن أحد بني مروان أنه وقع على مطالعة فيها شكاية عماله: «إن إلينا إيابهم، ثم إن علينا حسابهم». والآخر تضمين آية في معنى هزل، ونعوذ بالله من ذلك، كقوله:

أرخى إلى عشاقه طرفه ... هيهات هيهات لما توعدون
وردفه ينطق من خلفه ... لمثل ذا فليعمل العاملون

وذكر الشيخ تاج الدين السبكي في طبقاته في ترجمة الإمام أبي منصور عبد القاهر بن الطاهر التميمي البغدادي من كبار الشافعية وأجلائهم أن من شعره قوله:

يا من عدى ثم اعتدى ثم اقترف ... ثم انتهى ثم ارعوى ثم اعترف
أبشر بقول الله في آياته ... إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف

قال السيوطي: ليس هذا البيتان من الاقتباس لتصريحه بقول الله، وقد قدمنا أن ذلك خارج عنه. والورع اجتناب ذلك كله، وأن ينزه عن مثله كلام الله ورسوله وإن ثبت استعمال الأئمة الأجلاء له، كالإمام أبي

القاسم الرافعي الذي قال:

الملك لله الذي عنت الوجو ه له وذلت عنده الأرباب
متفرد بالملك والسلطان قد خسر الذين تجاذبوه وخابوا
دعهم وزعم الملك يوم غرورهم فسيعلمون غدا من الكذاب

وروى البيهقي في شعب الإيمان، عن شيخه أبي عبد الرحمن السلمي، قال: أنشدنا أحمد بن محمد بن يزيد لنفسه:

سل الله من فضله واتقه فإن التقى خير ما تكتسب
ومن يتق الله يصنع له ويرزقه من حيث لا يحتسب

في معرفة غريبه

الغريب هو معنى الألفاظ التي يحتاج إلى البحث عنها في اللغة ومرجعه النقل والكتب المصنفة فيه، وينبغي الاعتناء به فقد أخرج البيهقي من حديث أبي هريرة مرفوعا [أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه] وأخرج مثله عن عمرو بن عمرو بن مسعود موقوفا وأخرج من حديث ابن عمر مرفوعا [من قرأ القرآن فأعربه كان له بكل حرف عشرون حسنة ومن قرأه بغير إعراب كان له بكل حرف عشر حسنات] والمراد بإعرابه معرفة معاني ألفاظه وليس المراد به الإعراب المصطلح عليه عند النحاة وهو ما يقابل اللحن لأن القراءة مع فقده ليس قراءة ولا ثواب فيها، وعلى الخائض في ذلك التثبت والرجوع إلى كتب أهل الفن، وعدم الخوض بالظن فهذه الصحابة وهم العرب العرباء وأصحاب اللغة الفصحى ومن نزل القرآن عليهم وبلغتهم توقفوا في ألفاظ لم يعرفوا معناها فلم يقولوا فيها شيئاً، فأخرج أبو عبيد في الفضائل عن ابراهيم التيمي أن أبا بكر الصديق سئل عن قوله تعالى: [وفاكهة وأبا] فقال: أي سماء تظلني وأي أرض تقلني إن أنا قلت في

كتاب الله ما لا أعلم، وأخرج عن أنس أن عمر بن الخطاب قرأ على المنبر [وفاكهة وأبا] فقال: هذه الفاكهة قد عرفناها فما الأب؟ ثم رجع إلى نفسه فقال: إن هذا لهو الكلف يا عمر - وأخرج من طريق مجاهد عن ابن عباس قال: كنت لا أدري ما فاطر السموات حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر فقال أحدهما: أنا فطرتها يقول: أنا ابتدأتها.

وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير أنه سئل عن قوله: [وحنانا من لدنا] فقال: سألت عنها ابن عباس فلم يجب فيها شيئا وأخرج الفريابي: حدثنا اسرائيل حدثنا سماك بن حرب عن عكرمة عن ابن عباس قال: كل القرآن أعلمه الا أربعا: غسلين وحنانا وأواه والرقيم. وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة قال قال ابن عباس: ماكنت أدري ما قوله: [ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق] حتى سمعت قول بنت ذي يزن: تعال أفاتحك تريد أخاصمك - وأخرج من طريق مجاهد عن ابن عباس قال: ما أدري ما الغسلين ولكني أظنه الزقوم -.

[فصل] معرفة هذا الفن للمفسر ضرورية قال في البرهان: يحتاج الكاشف عن ذلك إلى معرفة علم اللغة اسماء وأفعالا وحروفا فالحروف لقلتها تكلم النحاة على معانيها فيؤخذ ذلك من كتبهم وأما الأسماء والأفعال فتؤخذ من كتب علم اللغة قال السيوطي: وأولى ما يرجع اليه في ذلك ما ثبت عن ابن عباس وأصحابه الآخذين عنه فانه ورد عنهم ما يستوعب تفسير غريب القرآن بالأسانيد الصحيحة مما ورد عن ابن عباس من طريق ابن أبي طلحة وهي من أصح الطرق عنه في قوله تعالى: يؤمنون: يصدقون، يعمهون: يتمادون، مطهرة: من القذر والأذى، الخاشعين: المصدقين بما أنزل الله، وفي ذلكم بلاء: نعمة، وفومها: الحنطة، إلا أماني: أحاديث وساق السيوطي في الاتقان جميع ما ورد من ذلك على وجه الإتقان والاستيعاب مرتبا على السور.

[فائدة] استشكل دخول الغريب في القرآن مع أن السلامة من الغرابة من شروط الفصاحة والقرآن افصح الكلام فيجب أن يكون خاليا من ذلك أجيب بأن الغرابة لها معنيان: المعنى الأول استعمال اللفظ الوحشي غير المأنوس الاستعمال وهذا مما يخل بالفصاحة - والمعنى الثاني استعمال ما لا مدخل للرأي فيه بل يرجع معناه إلى النقل مثل قسورة للأسد وهذا النوع واقع في القرآن وهو محتاج إلى البيان من أهل هذا الشأن.

[فصل] قال أبو بكر ابن الانباري: قد جاء عن الصحابة والتابعين كثيرا الاحتجاج على غريب القرآن ومشكله بالشعر قال ابن عباس: الشعر ديوان العرب فإذا خفي علينا الحرف من القرآن الذي أنزله الله بلغة العرب رجعنا إلى ديوانها فالتمسنا معرفة ذلك منه ثم أخرج من طريق عكرمة عن ابن عباس قال: إذا سألتموني عن غريب القرآن فالتمسوه في الشعر فان الشعر ديوان العرب وقال أبو عبيد في فضائله: حدثنا هشيم عن حصين بن عبد الرحمن عن عبد الله بن عبد الرحمن بن عتبة عن ابن عباس أنه كان يسأل عن القرآن فينشد فيه الشعر قال أبو عبيد: يعني كان يستشهد به على التفسير قال السيوطي: قد روينا عن ابن عباس كثيرا من ذلك وأوعب ما رويناه عنه مسائل نافع ابن الأزرق وقد أخرج بعضها ابن الانباري في كتاب الوقف والطبراني في معجمه الكبير من ذلك قول نافع لابن عباس أخبرني عن قول الله تعالى: [عن اليمين وعن الشمال عزين] قال: العزون حلق الرفاق قال: وهل تعرف العرب ذلك قال: نعم أما سمعت عبيد بن الأبرص وهو يقول:

فجاؤوا يهرعون إليه حتى يكونوا حول منبره عزينا

قال: أخبرني عن قوله تعالى: [وابتغوا اليه الوسيلة] قال: الوسيلة

الحاجة. قال: وهل تعرف العرب ذلك قال: نعم أما سمعت عنترة وهو يقول:

إن الرجـال لهم اليـك وسيلـة   إن يأخـذوك تكحلي وتخضبي

ما وقع فيه بغير لغة العرب

اختلف الأئمة في وقوع المعرّب في القرآن، فالأكثرون، ومنهم: الإمام الشافعي، وابن جرير، وأبو عبيدة، والقاضي أبو بكر، وابن فارس على عدم وقوعه فيه لقوله تعالى: «قرآناً عربياً» وقوله تعالى: «ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمي وعربي» وقد شدد الشافعي النكير على القائل بذلك. وقال أبو عبيدة: إنما أُنزل القرآن بلسان عربي مبين، فمن زعم أن فيه غير العربية فقد أعظم القول، ومن زعم أن كذا بالنبطيّة، فقد أكبر القول. ويقابل هذا القول ما جاء عن بعضهم بجواز وقوع ذلك وأن هناك ألفاظاً غير عربية استعملها العرب وجرت مجرى الفصيح فوقع بها البيان ونزل القرآن.

وقال آخرون: كل هذه الألفاظ عربية صرفة، ولكن لغة العرب متسعة جداً، ولا يبعد أن تخفى على الأكابر الجلّة، وقد خفي على ابن عباس معنى «فاطر» و«فاتح».

قال الشافعي في الرسالة: لا يحيط باللغة إلا نبي.

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: والصواب عندي، أن هذه الأحرف أصولها أعجمية كما قال الفقهاء، لكنها وقعت للعرب، فعربتها بألسنتها وحوّلتها عن ألفاظ العجم إلى ألفاظها، فصارت عربية ثم نزل القرآن وقد اختلطت هذه الحروف بكلام العرب فمن قال: إنها عربية فهو صادق، ومن قال: أعجمية فصادق، ومال إلى هذا القول الجواليقي وابن الجوزي وآخرون -.

وهذه أمثلة لتلك الألفاظ:

(أباريق): حكى الثعالبي في فقه اللغة أنها فارسية. وقال الجواليقي: الإبريق فارسي معرب، ومعناه طريق الماء أو صب الماء على هينة.

(أبّ): قال بعضهم: هو الحشيش بلغة أهل الغرب حكاه شيدلة.

(ابلعي): أخرج ابن أبي حاتم عن وهب بن منبه في قوله تعالى: «ابلعي ماءك» قال: بالحبشية «إزدرديه».

(اخلد): قال الواسطي في الإرشاد: أخلد إلى الأرض، ركن بالعبرية.

(الأرائك): حكى ابن الجوزي في فنون الأفنان، أنها السرر بالحبشية.

(استبرق): أخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك أنه الديباج الغليظ بلغة العجم.

(أسفار): قال الواسطي في الإرشاد: هي الكتب بالسريانية.

(إصري): قال أبو القاسم في لغات القرآن معناه عهدي بالنَّبَطية.

(أكواب): حكي ابن الجوزي أنها الأكواز بالنبطية.

(إناه): نضجه بلسان أهل المغرب.

(أواه): أخرج أبو الشيخ ابن حبان من طريق عكرمة، عن ابن عباس قال: الأواه: الموقن بلسان الحبشة.

في قواعد مهمة يحتاج المفسر إلى معرفتها
قاعدة في الضمائر

مرجع الضمير:

لا بد له من مرجع يعود إليه، ويكون ملفوظاً به سابقاً مطابقاً له نحو: [ونادى نوح ابنه] [وعصى آدم ربه] [إذا أخرج يده لم يكد يراها]، أو متضمناً له نحو: [اعدلوا هو أقرب].

أو دالا عليه بالتزام، نحو: [إنا أنزلناه] أي القرآن، لأن الإنزال يدل عليه التزاماً. [فمن عفى له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه] فـ «عفى» يستلزم عافيا أعيد عليه الهاء من «إليه» أو متأخراً لفظاً لا رتبة مطابقاً نحوه: [فأوجس في نفسه خيفة موسى]، [ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون]، [فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان].

وقد يعود على لفظ المذكور دون معناه، نحو: [وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره] أي عمر معمر آخر.

وقد يعود على لفظ شيء والمراد به الجنس من ذلك الشيء، قال الزمخشري كقوله: [إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما] أي بجنسي الفقير والغني لدلالة [غنياً أو فقيراً] على الجنسين ولو رجع إلى المتكلم به لوحده.

وقد يثنى الضمير ويعود على أحد المذكورين، نحو: [يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان] وإنما يخرج من أحدهما.

وقد يجيء الضمير متصلا بشيء وهو لغيره،، نحو [ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين] يعني آدم، ثم قال: [ثم جعلناه نطفة] فهذه لولده، لأن آدم لم يخلق من نطفة.

وهذا هو باب الاستخدام، ومنه [لا تسألوا عن أشياء إن تبدلكم

تسؤكم] ثم قال: [قد سألها] أي أشياء أُخرى مفهومة من لفظ «أشياءَ» السابقة.

وقد يعود الضمير على ملابس ما هو له، نحو: [إلا عشية أو ضحَاها] أي ضحى يومها، لا ضحى العشية نفسها، لأنه لاضحى لها.

قاعدة

جمع العاقلات لا يعود عليه الضمير غالباً إلا بصيغة الجمع، سواء كان للقلة أو للكثرة نحو: [والوالدات يرضعن]، [والمطلقات يتربصن] وورد الإفراد في قوله تعالى: [أزواج مطهرة] ولم يقل مطهرات.

وأما غير العاقل فالغالب في جمع الكثرة الإفراد، وفي القلة الجمع وقد اجتمعا في قوله: [إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً] إلى أن قال: [منها أربعة حرم] فأعاد «منها» بصيغة الإفراد على الشهور، وهي للكثرة، ثم قال: [فلا تظلموا فيهن] فأعاده جمعاً على «أربعة حرم» وهي للقلة.

قاعدة

إذا اجتمع في الضمائر مراعاة اللفظ والمعنى بدىءَ باللفظ ثم بالمعنى هذا هو الجادة في القرآن، قال تعالى: [ومن الناس من يقول] ثم قال: [وما هم بمؤمنين] أفرد أولا باعتبار اللفظ، ثم جمع باعتبار المعنى، وكذا [ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم] [ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني ألا في الفتنة سقطوا].

قال الشيخ علم الدين العراقي: ولم يجىء في القرآن البداءة بالحمل على المعنى، إلا في موضع واحد، وهو قوله: [وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا] فأنَّث «خالصاً» حملا على معنى «ما» ثم راعى اللفظ فذكر فقال [محرم] انتهى.

قاعدة

في التعريف والتنكير

اعلم ان لكل منهما مقاماً لا يليق بالآخر،أما التنكير فله أسباب:

أحدها: إرادة الوحدة، نحو: [وضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل].

الثاني: إرادة النوع، نحو: [هذا ذكر] أي نوع من الذكر [وعلى أبصارهم غشاوة] أي نوع غريب من الغشاوة لا يتعارفه الناس، بحيث غطى ما لا يغطيه شيء من الغشاوات [ولتجدنهم أحرص الناس على حياة] أي نوع منها، وهو الازدياد في المستقبل، لأن الحرص لا يكون على الماضي ولا على الحاضر.

ويحتمل الوحدة والنوعية معاً قوله: [والله خلق كل دابة من ماء] أي كل نوع من أنواع الدواب من نوع من أنواع الماء، وكل فرد من أفراد الدواب من فرد من أفراد النطف.

الثالث: التعظيم بمعنى أنه أعظم من أن يعين أو يعرف نحو: [فأذنوا بحرب] أي بحرب أي حرب.

الرابع: التكثير، نحو: «أئن لنا لأجراً» أي وافراً جزيلا.

ويحتمل التعظيم والتكثير معاً، قوله: [وإن يكذبوك فقد كذبت رسل] أي رسل عظام ذوو عدد كثير.

الخامس: التحقير بمعنى انحطاط شأنه إلى حد لا يمكن أن يعرف نحو: [إن نظن إلا ظناً] أي ظناً حقيراً لا يعبأ به.

السادس: التقليل نحو: [ورضوان من الله أكبر] أي رضوان قليل منه أكبر من الجنات، لأنه رأس كل سعادة.

قليـــل منـــك يكفيني ولكن قليلـــك لا يقـــال لـــه قليـــل

وأما التعريف فله أسباب، فبالإضمار لأن المقام مقام التكلم أو الخطاب أو الغيبة، وبالعلمية لإحضاره بعينه في ذهن السامع ابتداءً باسم مختص به، نحو: [قل هو الله] [محمد رسول الله] أو لتعظيم أو إهانة فمن التعظيم ذكر يعقوب بلقبه اسرائيل لما فيه من المدح والتعظيم بكونه صفوة الله، أو سريّ الله.

ومن الاهانة: قوله: [تبت يدا أبي لهب] وفيه أيضاً نكتة أخرى وهي الكناية عن كونه جهنمياً.

وبالإشارة لتمييزه أكمل تمييز بإحضاره في ذهن السامع حسا نحو: [هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه] وللتعريض بغباوة السامع حتى أنه لا يتميز له الشيء إلا بإشارة الحس، وهذه الآية تصلح لذلك.

ولقصد تحقيره بالقرب، كقول الكفار: [أهذا الذي يذكر آلهتكم] [أهذا الذي بعث الله رسولا] [ماذا أراد الله بهذا مثلا] وقوله تعالى: [وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب].

ولقصد تعظيمه بالبعد، نحو: [ذلك الكتاب لا ريب فيه] ذهاباً إلى بعد درجته. وبالموصولية لكراهة ذكره بخالص إسمه اما سترا عليه او إهانة له او لغير ذلك نحو: والذي قال لوالديه اف لكما - وراودته التي هو في بيتها -.

وقد يكون لإرادة العموم، نحو: [إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا] الآية، [والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا].

[إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم].

وللاختصار، نحو: [لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا] أي قولهم إنه آدر، إذ لوعد أسماء القائلين لطال وليس للعموم لأن بني إسرائيل كلهم لم يقولوا في حقه ذلك.

قاعدة اخرى

تتعلق بالتعريف والتنكير

إذا ذكر الإسم مرتين، فله أربعة أحوال، لأنه إما أن يكونا معرفتين، أو نكرتين، أو الأول نكرة والثاني معرفة، أو بالعكس، فإن كانا معرفتين فالثاني هو الأول غالباً، دلالة على المعهود الذي هو الأصل في اللام أو الإضافة نحو: [إهدنا الصراط المستقيم] [صراط الذين أنعمت عليهم] [وقهم السيئات ومن تق السيئات].

وإن كانا نكرتين فالثاني غير الأول غالباً، وإلا لكان المناسب هو التعريف بناءً على كونه معهوداً سابقاً، نحو: [الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة] فإن المراد بالضعف الأول النطفة، وبالثاني الطفولية، والثالث الشيخوخة.

وقد اجتمع القسمان: في قوله تعالى: [فإن مع العسر يسرا، إن مع العسر يسرا] فالعسر الثاني هو الأول واليسر الثاني غير الأول، ولهذا قال ﷺ في الآية [لن يغلب عسر يسرين].

وإن كان الأول نكرة والثاني معرفة، فالثاني هو الأول حملا على العهد، نحو: [أرسلنا إلى فرعون رسولا، فعصى فرعون الرسول] [فيها مصباح، المصباح في زجاجة الزجاجة]، [إلى صراط مستقيم صراط الله].

[ما عليهم من سبيل، إنما السبيل].

وإن كان الأول معرفة والثاني نكرة، فلا يطلق القول بل يتوقف على القرائن، فتارة تقوم قرينة على التغاير، نحو: [ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة].

وتارة تقوم قرينة على الاتحاد، نحو: [ولقد ضربنا للناس في هذا

القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون. قرآناً عربياً].

تنبيه

قال الشيخ بهاءُ الدين في عروس الأَفراح وغيره: إن الظاهر أَن هذه القاعدة غير محررة فإنها منتقضة بآيات كثيرة منها في القسم الأَول [هل جزاءُ الإِحسان إلا الإِحسان] فإنهما معرفتان والثاني غير الأَول [الحر بالحر...] الآية [هل أتى على الإنسان حين من الدهر] ثم قال: [إنا خلقنا الإِنسان من نطفة أَمشاج] فإِن الأَول آدم والثاني ولده [وكذلك أَنزلنا إِليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به] فإِن الأَول القرآن والثاني التوراة والإِنجيل.

ومنها في القسم الثاني:

[وهو الذي في السماء إله وفي الأَرض إله]، [يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه، قل قتال فيه كبير] فإِن الثاني فيهما هو الأَول وهما نكرتان.

ومنها في القسم الثالث:

[أَن يصلحا بينهما صلحاً والصلح خير]، [ويؤت كل ذي فضل فضله]، [ويزدكم قوة إلى قوتكم]، [ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم] [زدناهم عذاباً فوق العذاب]، [وما يتبع أَكثرهم إلا ظناً إن الظن] فإِن الثاني فيها غير الأَول.

قال السيوطي لاانتقاض بشيءٍ من ذلك عند التأَمل فإِن اللام في الاحسان للجنس فيما يظهر، وحينئذ يكون في المعنى كالنكرة، وكذا آية النفس والحر بخلاف آية العسر، فان «أَل» فيها إما للعهد أَو للاستغراق كما يفيده الحديث، وكذا آية الظن لا نسلم فيها أَن الثاني فيها غير الأَول بل هو عينه قطعاً، إذ ليس كل ظن مذموماً، كيف

وأحكام الشريعة ظنية، وكذا آية الصلح، لا مانع من أن يكون المراد منها الصلح المذكور وهو الذي بين الزوجين، واستحباب الصلح في سائر الأمور مأخوذ من السنة ومن الآية بطريق القياس، بل لا يجوز القول بعموم الآية، وأن كل صلح خير، لأن ما أحل حراماً من الصلح أو حرم حلالا فهو ممنوع، وكذا آية القتال ليس الثاني فيها عين الأول بلا شك لأن المراد بالأول المسئول عنه القتال الذي وقع في سرية ابن الحضرمي سنة اثنتين من الهجرة لأنه سبب نزول الآية، والمراد بالثاني جنس القتال لا ذاك بعينه. وأما آية [وهو الذي في السماء إله]، فقد أجاب عنها الطيبي: أنها من باب التكرير، لإفادة أمر زائد، بدليل تكرير ذكر الرب فيما قبله من قوله: [سبحان رب السموات والأرض رب العرش] ووجهه الإطناب في تنزيه تعالى عن نسبة الولد إليه، وشرط القاعدة ألا يقصد التكرير.

قاعدة

في الإفراد والجمع

من ذلك السماء والأرض، حيث وقع في القرآن ذكر الأرض فإنها مفردة، ولم تجمع، بخلاف السموات لثقل جمعها وهو أرضون ولهذا لما أريد ذكر جميع الأرضين قال [ومن الأرض مثلهن] وأما السماء فذكرت تارة بصيغة الجمع، وتارة بصيغة الإفراد لنكت تليق بذلك المحل، والحاصل أنه حيث أريد العدد أتي بصيغة الجمع الدالة على سعة العظمة والكثرة، نحو: [سبح لله ما في السموات] أي جميع سكانها على كثرتهم، [تسبح له السموات] أي كل واحدة على اختلاف عددها.

وحيث أريد الجهة أتى بصيغة الإفراد، نحو: [وفي السماء رزقكم] [أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض] أي من فوقكم.

ومن ذلك الريح ذكرت مجموعة ومفردة، فحيث ذكرت في سياق الرحمة جمعت، أو في سياق العذاب أفردت.

أخرج ابن أبي حاتم وغيره، عن أبي بن كعب، قال: «كل شيء في القرآن من الرياح فهو رحمة، وكل شيء فيه من الريح فهو عذاب» ولهذا ورد في الحديث: «اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً» وذكر في حكمة ذلك أن رياح الرحمة مختلفة الصفات والمهابات والمنافع، وإذا هاجت منها ريح أثير لها من مقابلها ما يكسر سورتها، فينشأ من بينهما ريح لطيفة تنفع الحيوان والنبات، فكانت في الرحمة رياحاً، وأما في العذاب فإنها تأتي من وجه واحد ولا معارض لها ولا دافع. وقد خرج عن هذه القاعدة قوله تعالى في سورة يونس: [وجرين بهم بريح طيبة] وذلك لوجهين: لفظي وهو المقابلة في قوله: [جاءتها ريح عاصف] ورب شيء يجوز في المقابلة ولا يجوز استقلالا، نحو [ومكروا ومكر الله]. ومعنوي، وهو أن تمام الرحمة هناك إنما يحصل بوحدة الريح لا باختلافها، فإن السفينة لا تسير إلا بريح واحدة من وجه واحد، فإن اختلفت عليها الريح كان سببَ الهلاك والمطلوب هنا ريح واحدة ولهذا أكد هذا المعنى بوصفها بالطيب، وعلى ذلك أيضاً جرى قوله: [إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد].

وقال ابن المنير: إنه على القاعدة، لأن سكون الريح عذاب وشدة على أصحاب السفن. ومن ذلك إفراد النور وجمع الظلمات وإفراد سبيل الحق وجمع سبلَ الباطل في قوله تعالى [ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله] لأن طريق الحق واحدة، وطريق الباطل متشعبة متعددة، والظلمات بمنزلة طريق الباطل، والنور بمنزلة طريق الحق، بل هما هما ولهذا وحّد «ولي المؤمنين» وجمع «أولياء الكفار» لتعددهم في قوله تعالى: [الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات].

ومن ذلك إفراد النار حيث وقعت، والجنة وقعت مجموعة ومفردة، لأن الجنان، مختلفة الأنواع، فحسن جمعها، والنار مادة واحدة، ولأن الجنة رحمة والنار عذاب، فناسب جمع الأولى وإفراد الثانية على حد الرياح والريح.

ومن ذلك إفراد الصديق وجمع الشافعين في قوله تعالى: [فما لنا من شافعين ولا صديق حميم] وحكمته كثرة الشفعاء في العادة، وقلة الصديق.

قال الزمخشري: ألا ترى أن الرجل إذا امتحن بإرهاق ظالم، نهضت جماعة وافرة من أهل بلده لشفاعته رحمة، وإن لم يسبق له بأكثرهم معرفة، وأما الصديق الصدوق فاعز من بيض الانوق. ومن ذلك إفراد السمع وجمع البصر، لأن السمع غلب عليه المصدرية، فأفرد بخلاف البصر، فإنه اشتهر في الجارحة ولأن متعلق السمع الأصوات، وهي حقيقة واحدة ومتعلق البصر الألوان والأكوان، وهي حقائق مختلفة، فأشار في كل منها إلى متعلقه. ومنه قوله تعالى: [وجعل لكم السمع والأبصار].

ومن ذلك مجيء المشرق والمغرب بالإفراد والتثنية والجمع فحيث أفردا فاعتباراً للجهة كقوله تعالى(رب المشرق والمغرب)،وحيث ثنيا فاعتباراً لمشرق الصيف والشتاء ومغربهما كقوله تعالى (رب المشرقين ورب المغربين) وحيث جمعا فاعتباراً لتعدد المطالع في كل فصل من فصلي السنة كقوله (برب المشارق والمغارب).

قاعدة

في السؤال والجواب

الأصل في الجواب أن يكون مطابقاً للسؤال إذا كان السؤال متوجهاً، وقد يعدل في الجواب عما يقتضيه السؤال، تنبيهاً على أنه كان

من حق السؤال ان يكون كذلك، ويسميه السكاكي الأُسلوب الحكيم.

وقد يجيء الجواب أعم من السؤال للحاجة إليه في السؤال، وقد يجيء أنقص لاقتضاء الحال ذلك.

مثال ما عدل عنه قوله تعالى: [يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج] سألوا عن الهلال: لمَ يبدو دقيقاً مثل الخيط، ثم يتزايد قليلا قليلا حتى يمتلىء، ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدأ، فأجيبوا ببيان حكمة ذلك، تنبيهاً على أن الأهم السؤال عن ذلك لا ما سألوا عنه.

وهذا إذا قلنا إن سؤالهم كان كذلك إذ يحتمل أنهم سألوا عن الحكمة وحينئذٍ فالمطابقة ظاهرة..

ومثال الزيادة في الجواب قوله تعالى: [الله ينجيكم منها ومن كل كرب] في جواب [من ينجيكم من ظلمات البر والبحر]. وقول موسى [هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي] في جواب [وما تلك بيمينك يا موسى] زاد في الجواب استلذاذاً بخطاب الله تعالى.

وقول قوم إبراهيم: [نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين] في جواب [ما تعبدون] زادوا في الجواب إظهاراً للابتهاج بعبادتها والإستمرار على مواظبتها ليزداد غيظ السائل.

في معرفة الوجوه والنظائر

فالوجوه اللفظ المشترك الذي يستعمل في عدة معان كلفظ الأُمة والنظائر كالألفاظ المتواطئة.

وقد جعل بعضهم ذلك من أنواع معجزات القرآن حيث كانت الكلمة الواحدة تنصرف إلى عشرين وجهاً وأكثر وأقل، ولا يوجد ذلك في كلام البشر.

أخرج ابن سعد وغيره عن أبي الدرداء موقوفاً: «لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يرى للقرآن وجوهاً كثيرة».

وأشار آخرون إلى أن المراد به استعمال الإشارات الباطنة، وعدم الاقتصار على التفسير الظاهر.

وأخرج ابن سعد من طريق عكرمة، عن ابن عباس أن علي بن ابي طالب أرسله إلى الخوارج، فقال: «اذهب إليهم فخاصمهم ولا تحاجهم بالقرآن، فإنه ذو وجوه، ولكن خاصمهم بالسنة.

وهذه عيون من أمثلة هذا النوع، من ذلك:

الهدى: يأتي على سبعة عشر وجهاً:

بمعنى الثبات: «إهدنا الصراط المستقيم» [الفاتحة].

والبيان: «أولئك على هدى من ربهم» [البقرة ٥].

والدين: «إن الهدى هدى الله» [آل عمران ٧٣].

والإيمان: «ويزيد الله الذين اهتدوا هدى» [مريم ٧٤].

والدعاء: «ولكل قوم هاد[١]» «وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا[٢]».

وبمعنى الرسل والكتب: «فإما يأتينكم مني هدى»[٣] والمعرفة: «وبالنجم هم يهتدون» (النحل ١٦).

وبمعنى النبي ﷺ: «إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى» [البقرة ١٥٩].

وبمعنى القرآن: «ولقد جاءهم من ربهم الهدى» [النجم ٢٣].

والتوراة: «ولقد آتينا موسى الهدى» [غافر ٥٣].

والاسترجاع: «وأولئك هم المهتدون» [البقرة ١٥٧].

---

(١) الرعد ٧ (٢) الأنبياء ٧٣ (٣) البقرة ٣٨

والحجة:	« لا يهدي القوم الظالمين » بعد قوله تعالى: « ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه » أي لا يهديهم حجة [البقرة ٢٥٨].
والتوحيد:	« إن نتبع الهدى معك » [القصص ٥٧].
والسنة:	« فبهداهم اقتده » [الأنعام ٩٠] « وإنا على آثارهم مهتدون » [الزخرف ٢٢].
والإصلاح:	« وأن الله لا يهدي كيد الخائنين » [يوسف ٥٢].
والإلهام:	« أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » أي ألهمه المعاش [طه ٥٠].
والتوبة:	« إنا هدنا إليك » [الأعراف ١٥٦].
والإرشاد:	« أن يهديني سواء السبيل » [القصص ٢٢].
ومن ذلك:	« السوء » يأتي على أوجه:
الشدة:	« يسومونكم سوء العذاب » [البقرة ٤٩].
والعقر:	« ولا تمسوها بسوء » [الأعراف ٧٣].
والزنى:	« ما جزاء من أراد بأهلك سوءا » [يوسف ٢٥] « ما كان أبوك امرأ سوء » [مريم ٢٨].
والبرص:	« بيضاء من غير سوء » [القصص ٣٢].
والشرك:	« ما كنا نعمل من سوء » [النحل ٢٨].
والقتل والهزيمة:	« لم يمسسهم سوء » [آل عمران ١٧٤].
والعذاب:	إن الخزي اليوم والسوء على الكافرين [النحل ٢٧].
ومن ذلك:	« الصلاة » تأتي على أوجه:
الصلوات الخمس:	« يقيمون الصلاة » [البقرة ٣].

وصلاة العصر: «تَحبسونها من بعد الصلاة» [المائدة ١٠٤].

وصلاة الجمعة: «إذا نودي للصلاة» [الجمعة ٥٢].

والجنازة: «ولا تصل على أحد منهم» [التوبة ٨٤].

والدعاء: «وصل عليهم» [التوبة ١٠٣].

والدين: «أصلوتك تأمرك» [هود ٨٧].

والقراءة: «ولا تجهر بصلاتك» [الاسراء ١١٠].

والرحمة والاستغفار: «إن الله وملائكته يصلون على النبي» [الأحزاب ٥٤].

ومن ذلك: «الرحمة» وردت على أوجه:

الإسلام: «يختص برحمته من يشاء» [آل عمران ٧٤].

والإيمان: «وآتاني رحمة من عنده» [هود ٢٨].

والجنة: «ففي رحمة الله هم فيها خالدون» [آل عمران ١٠٧].

والمطر: «بشرا بين يدي رحمته» [الاعراف ٥٧].

ومن ذلك: «الفتنة» وردت على أوجه:

الشرك: «والفتنة أشد من القتل» [البقرة ١٩١].

والإضلال: «ابتغاء الفتنة» [آل عمران ٧].

والقتل: «أن يفتنكم الذين كفروا» [النساء ١٠١].

والمعذرة: «ثم لم تكن فتنتهم» [الأنعام ٢٣].

والقضاء: «إن هي إلا فتنتك» [الإعراف ١٥٥].

والمرض: «يفتنون في كل عام» [التوبة ١٢٦].

والعبرة: «لا تجعلنا فتنة» [يونس ٨٥].

ومن ذلك: «الروح» ورد على أوجه:

الأمر: «وروح منه» [النساء ١٧١].

والوحي: «ينزل الملائكة بالروح» [النحل ٢].

والقرآن: «أوحينا إليك روحاً من أمرنا» [الشورى ٥٢].

وجبريل: «فأرسلنا إليها روحنا» [مريم ١٧].

وروح البدن: «ويسألونك عن الروح» [الإسراء ٨٥].

ومن ذلك: «الذكر» ورد على أوجه:

ذكر اللسان: «فاذكروا الله كذكركم آباءكم» [البقرة ٢٠٠].

والحفظ: «واذكروا ما فيه» [البقرة ٤٣].

والطاعة والجزاء: «فاذكروني أذكركم» [البقرة ١٥٢].

والحديث: «اذكرني عند ربك» أي حدثه بحالي [يوسف ٤٢].

والقرآن: «ومن أعرض عن ذكري» [طه ١٢٤].

والشرف: «وإنه لذكر لك» [الزخرف ٤٤].

والعيب: «أهذا الذي يذكر آلهتكم» [الانبياء ٣٤].

واللوح المحفوظ: «من بعد الذكر» [الأنبياء ١٠٥].

والثناء: «وذكر الله كثيراً» [الأحزاب ٢١].

والصلاة: «ولذكر الله أكبر» [العنكبوت ٩٥].

فوائد

قال ابن فارس في كتاب الأفراد: كل ما في القرآن من ذكر الأسف فمعناه الحزن إلا «فلما آسفونا» فمعناه أغضبونا.

وكل ما فيه من ذكر: «البروج» فهي الكواكب إلا: «ولو كنتم في بروج مشيدة» فهي القصور الطوال الحصينة.

وكل ما فيه من ذكر: «البر والبحر» فالمراد بالبحر الماء، وبالبر التراب اليابس، إلا «ظهر الفساد في البر والبحر» فالمراد به البرية والعمران.

وكل ما فيه من «البعل» فهو الزوج إلا «أتدعون بعلا» فهو الصنم.

وكل ما فيه من «الدحض» فالباطل إلا «فكان من المدحضين» فمعناه من المقروعين.

وكل ما فيه من «الرجم» فهو القتل إلا «لأرجمنك» فمعناه لأشتمنك و«رجماً بالغيب» أي ظناً.

وكل «شهيد» فيه غير القتلى فمن يشهد في أمور الناس إلا: «وادعوا شهداءكم» فهو شركاؤهم.

وكل ما فيه من «أصحاب النار» فأهلها «إلا وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة» فالمراد خزنتها.

وكل «نبأ» فهو خبر إلا «فعميت عليهم الأنباء» فهي الحجج.

وقال ابن خالويه: ليس في القرآن «بعد» بمعنى «قبل» إلا حرف واحد: «ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر».

وقال مغلطاي في كتاب الميسر: قد وجدنا حرفاً آخر وهو قوله تعالى: «والأرض بعد ذلك دحاها».

قال أبو موسى في كتاب المغيث: معناه هنا «قبل» لأنه تعالى خلق الأرض في يومين، ثم استوى إلى السماء، فعلى هذا خلق الأرض قبل خلق السماء. انتهى.

وقد تعرض النبي ﷺ والصحابة والتابعون بشيء من هذا النوع.

فأخرج الإمام أحمد في مسنده، وابن أبي حاتم وغيرهما من طريق دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ قال: كل حرف في القرآن يذكر فيه القنوت فهو الطاعة هذا إسناده جيد وابن حبان يصححه.

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق عكرمة، عن ابن عباس، قال: «كل شيء في القرآن أليم» فهو الموجع.

وأخرج من طريق عليّ بن ابي طلحة، عن ابن عباس قال: كل شيء في القرآن «قتل» فهو لعن.

وأخرج من طريق الضحاك عن ابن عباس، قال: كل شيء في كتاب الله من «الرّجز» يعنى به العذاب.

وقال الفريابي: حدثنا قيس، عن عمارة الذهبي، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: «كل تسبيح في القرآن صلاة، وكل سلطان في القرآن حجة».

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق عكرمة، عن ابن عباس، قال: كل شيء في القرآن «الدين» فهو الحساب.

وأخرج ابن أبي حاتم وغيره عن أُبيّ بن كعب، قال: كل شيء في القرآن من «الرياح» فهي رحمة، وكل شيء فيه من «الريح» فهو عذاب.

وأخرج عن أبي مالك، قال: «وراء» في القرآن «أمام» كله غير حرفين «فمن ابتغى وراءَ ذلك» يعني سوى ذلك، «وأُحل لكم ما وراء ذلكم» يعني سوى ذلكم.

وأخرج عن أبي بكر بن عياش، قال: ما كان «كِسفا» فهو عذاب وما كان «كِسَفا» فهو قطع السحاب.

وأخرج ابن جرير عن أبي روق، قال: كل شيء في القرآن «جعل» فهو خلق.

وفي صحيح البخاري قال سفيان بن عيينة، ما سمى الله المطر في القرآن إلا عذاباً وتسميه العرب الغيث.

قال السيوطي : استثنى من ذلك «إن كان بكم أذى من مطر» فإن المراد به الغيث قطعاً.

قال أبو عبيدة: إذا كان في العذاب فهو «أمطرت» وإذا كان في الرحمة فهو «مطرت».

وأخرج عن سفيان بن عيينة، قال: كل شيء في القرآن «وما يدريك» فلم يخبر به «وما أدراك» فقد أخبر به.

قلت وأكثر هذه المسائل التي ذكرها هؤلاء بقولهم كل شيء في القرآن كذا فهو كذا إنما خرج مخرج الغالب وإلا فإن هناك أموراً منها تحتاج إلى استثناء.

معرفة إعرابه

أخرج أبو عبيد في فضائله، عن عمر بن الخطاب، قال: [تعلموا اللحن والفرائض والسنن كما تعلمون القرآن].

وأخرج عن يحيى بن عتيق، قال: قلت للحسن: يا أبا سعيد. الرجل يتعلم العربية يلتمس بها حسن المنطق، ويقيم بها قراءته قال: حسن يا ابن أخي فتعلمها، فإن الرجل يقرأ الآية فيعيى بوجهها، فيهلك فيها. وعلى الناظر في كتاب الله تعالى الكاشف عن أسراره النظر في الكلمة وصيغتها ومحلها ككونها مبتدأ أو خبراً أو فاعلا أو مفعولا، أو في مبادىء الكلام أو في جواب، إلى غير ذلك.

ويجب عليه مراعاة امور:

أحدها: وهو أول واجب عليه ان يفهم معنى ما يريد أن يعربه مفرداً أم مركباً قبل الاعراب، فإنه فرع المعنى، ولهذا لا يجوز إعراب فواتح السور إذا قلنا بأنها من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه.

قال ابن هشام: وقد زلّت أقدام كثير من المعربين راعوا في الاعراب ظاهر اللفظ ولم ينظروا في موجب المعنى، من ذلك قوله: [أصلوتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء]، فإنه يتبادر إلى الذهن عطف «أن نفعل» على «أن نترك» وذلك باطل لأنه لم يأمرهم أن يفعلوا في أموالهم ما يشاءون، وإنما هو عطف على «ما» فهو معمول للترك، والمعنى أن نترك أن نفعل وموجب الوهم المذكور أن المعرب يرى أن والفعل مرتين، وبينهما حرف العطف.

الثاني: أن يراعي ما تقتضيه الصناعة، فربما راعى المعرب وجهاً صحيحاً ولا ينظر في صحته في الصناعة فيخطيء.

ومن ذلك قول بعضهم: [وثمود فما أبقى] إن ثمود مفعول مقدم وهذا ممتنع لأن لـ «ما» النافية الصدر، فلا يعمل ما بعدها فيما قبلها بل هو معطوف على «عادا» من قوله [وأهلك عادا الأولى] أو على تقدير: [وأهلك ثمود].

وكذا قول غيره في [ملعونين أينما ثقفوا] إنه حال من معمول [ثقفوا وأخذوا] باطل، لأن الشرط له الصدر، بل هو منصوب على الذم.

الثالث: أن يتجنب الأمور البعيدة، والأوجه الضعيفة، واللغات الشاذة ويخرج على القريب والقوي والفصيح، فإن لم يظهر فيه إلا الوجه البعيد فله عذر، وإن ذكر الجميع لقصد الإغراب والتكثير فصعب شديد، أو لبيان المحتمل وتدريب الطالب فحسن في غير ألفاظ القرآن، أما التنزيل فلا يجوز أن يخرج إلا على ما يغلب على الظن إرادته، فإن

لم يغلب شيء فليذكر الأوجه المحتملة من غير تعسف ومن ثم خطِّىء من قال في: [فلا جناح عليه أن يطّوّف] إن الوقف على [جناح] و[عليه] إغراء، لأن إغراء الغائب ضعيف.

ومن قال في: [تماماً على الذي أحسنُ] بالرفع: إن أصله أحسنوا، فحذفت الواو اجتزاء عنها بالضمة، لأن باب ذلك الشعر؛ والصواب تقدير مبتدأ، أي هو أحسن.

ومن قال في: [ليذهب عنكم الرجس أهل البيت]: إنه منصوب على الاختصاص لضعفه بعد ضمير المخاطب، والصواب أنه منادى.

الرابع: أن يستوفي جميع ما يحتمله اللفظ من الأوجه الظاهرة فتقول في نحو [سبح اسم ربك الأعلى] يجوز كون [الأعلى] صفة للرب وصفة للإسم.

وفي نحو [هدى للمتقين، الذين]: يجوز كون [الذين] تابعاً ومقطوعاً إلى النصب باضمار [أعني] أو [أمدح] وإلى الرفع بإضمار [هو].

الخامس: أن يراعي الرسم، ومن ثم خطِّيء من قال في [سلسبيلا] إنها جملة أمرية، أي سل طريقاً موصلة إليها، لأنها لو كانت كذلك لكتبت مفصولة.

ومن قال في: [إن هذان لساحران]، إنها: إن وإسمها، أي إن القصة وذان مبتدأ خبره لساحران، والجملة خبر إن، وهو باطل برسم [إن] منفصلة وهذان متصلة.

ومن قال في: [أيهم أشد] إنَ هم أشد مبتدأ وخبر، وأي مقطوعة عن الإضافة، وهو باطل برسم [أيهم] متصلة.

ومن قال في: [وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون] إن [هم] ضمير

رفع مؤكد للواو، وهو باطل برسم الواو فيها بلا ألف بعدها؛ والصواب أنه مفعول.

السادس: أن يجتنب إطلاق لفظ الزائد في كتاب الله تعالى، فإن الزائد قد يفهم منه أنه لا معنى له، وكتاب الله منزه عن ذلك، ولذا فرّ بعضهم إلى التعبير بدله بالتأكيد، والصلة، والمقحم.

وقال ابن الخشاب: اختلف في جواز إطلاق لفظ الزائد في القرآن فالأكثرون على جوازه نظراً إلى أنه نزل بلسان القوم ومتعارفهم ولأن الزيادة بإزاء الحذف هذا للاختصار والتخفيف، وهذا للتوكيد، والتوطئة،ومنهم من أبى ذلك وقال: هذه الألفاظ المحمولة على الزيادة جاءت لفوائد ومعان تخصها، فلا أقضي عليها بالزيادة.

قال: والتحقيق أنه إن أريد بالزيادة إثبات معنى لا حاجة إليه فباطل لأنه عبث، فتعين أن إلينا به حاجة، ولكن الحاجة إلى الأشياء قد تختلف بحسب المقاصد، فليست الحاجة إلى اللفظ الذي عده هؤلاء زيادة كالحاجة إلى اللفظ المزيد عليه. انتهى.

قال السيوطي: بل الحاجة إلى الأول كالحاجة إلى الثاني سواء بالنظر إلى مقتضى الفصاحة والبلاغة.

تنبيه

قال أبو عبيد في فضائل القرآن: حدثنا أبو معاوية عن هشام بن عروة عن أبيه قال: سألت عائشة عن لحن القرآن عن قوله تعالى: [والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة] وعن قوله تعالى: [إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون] فقالت يا ابن أخي هذا عمل الكتاب، أخطأوا في الكتابة، (هذا إسناد صحيح على شرط الشيخين).

وقال: حدثنا حجاج، عن هارون بن موسى، أخبرني الزبير بن الحريث عن عكرمة، قال: لما كتبت المصاحف عرضت على عثمان فوجد فيها حروفاً من اللحن، فقال: لا تغيروها، فإن العرب ستغيرها - أو قال ستعربها - بألسنتها، (أخرجه ابن الأنباري في

كتاب الرد على من خالف مصحف عثمان وابن أشته في كتاب المصاحف) .

ثم أخرج ابن الأنباري نحوه ، من طريق عبدالأعلى بن عبدالله بن عامر وابن أشته نحوه من طريق يحيى بن يعمر .

وأخرج من طريق أبي بشر عن سعيد بن جبير ، أنه كان يقرأ [والمقيمين الصلاة] ويقول : هو لحن الكتاب .

وهذه الآثار مشكلة جداً ، وكيف يظن بالصحابة أولا أنهم يلحنون في الكلام فضلا عن القرآن ، وهم الفصحاء ثم كيف يظن بهم ثانياً في القرآن الذي تلقوه من النبي ﷺ كما أنزل وحفظوه وضبطوه وأتقنوه ! ثم كيف يظن ثالثاً اجتماعهم على الخطأ وكتابته ! ثم كيف يظن رابعاً عدم تنبههم ورجوعهم عنه ، ثم كيف يظن بعثمان أنه ينهى عن تغييره ثم كيف يظن أن القراءة استمرت على مقتضى ذلك الخطأ وهو مروي بالتواتر خلفاً عن سلف ! هذا مما يستحيل عقلا وشرعاً وعادة .

وقد أجاب العلماء عن ذلك بأجوبة .

منها : أن ذلك لايصح عن عثمان ، فإن إسناده ضعيف مضطرب منقطع ، ولأن عثمان جعل للناس إماماً يقتدون به ، فكيف يرى فيه لحناً ويتركه لتقيمه العرب بألسنتها ، فإذا كان الذين تولوا جمعه وكتابته لم يقيموا ذلك وهم الخيار ، فكيف يقيمه غيرهم ؟ وأيضا فإنه لم يكتب مصحفاً واحداً ، بل كتب عدة مصاحف ، فإن قيل : إن اللحن وقع في جميعها ، فبعيد اتفاقهم على ذلك ، أو في بعضها فهو اعتراف بصحة البعض ولم يذكر أحد من الناس أن اللحن كان في مصحف دون مصحف ولم تأت المصاحف قط مختلفة إلا فيما هو من وجوه القراءة وليس ذلك بلحن .

وأحسن الأجوبه : أن تلك الآثار عن عثمان فيها تحريف والذي بين ذلك ماأخرجه ابن أشته عن سوار بن سبثة قال : قال ابن الزبير : قام رجل إلى عمر فقال ياأمير المؤمنين ! إن الناس قد اختلفوا في القرآن فكان عمر قد هم أن يجمع القرآن على قراءة واحد فطعن طعنته التي مات فيها ، فلما كان في خلافة عثمان قام ذلك الرجل فذكر له فجمع عثمان المصاحف ثم بعثني إلى عائشة فجئت بالمصحف فعرضناها عليها حتى قومناها ، ثم أمر بسائرها فشققت .

وأخرج ابن أشته بسنده عن عثمان أنه قال : لما فرغ من المصحف أتى به عثمان فنظر فيه فقال أحسنتم وأجملتم أرى شيئا سنقيمه بألسنتنا .

فائدة

فيما قرىءَ بثلاثة أوجه: الإعراب أو البناء أو نحو ذلك وفي ذلك تأليف لطيف لأحمد بن يوسف بن مالك الرعيني سماه «تحفة الأقران فيما قرىء بالتثليث من حروف القرآن». ومن أمثلة ذلك [الحمد لله]، قرىء بالرفع على الابتداء والنصب على المصدر والكسر على اتباع الدال في حركتها للام من الله [رب العالمين]، قرىء بالجر على أنه نعت، وبالرفع على القطع بإضمار مبتدأ، وبالنصب عليه بإضمار فعل، أو على النداء.

[الرحمن الرحيم] قرىء بالثلاثة.

[اثنتا عشرة عيناً] قرىء بسكون الشين وهي لغة تميم، وكسرها وهي لغة الحجاز، وفتحها وهي لغة بلى.

[بين المرء] قرىءَ بتثليث الميم لغات فيها.

[ذرية بعضها من بعض] قرىءَ بتثليث الذال.

[واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام] قرىءَ [والأرحامَ] بالنصب عطفاً على لفظ الجلالة، وبالجر عطفاً على ضمير «به» وبالرفع على الابتداء والخبر محذوف أي والأرحام مما يجب أن تتقوه وأن تحتاطوا لأنفسكم فيه.

[لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر] قرىءَ (غير) بالرفع صفة لـ «قاعدون» وبالجر صفة لـ «المؤمنين» وبالنصب على الاستثناء.

[وامسحوا برؤسكم وأرجلكم] قرىءَ (وأرجلكم) بالنصب عطفاً على الأيدي وبالجر على الجوار أو غيره، وبالرفع على الابتداء والخبر محذوف دل عليه ما قبله.

المحكم والمتشابه

قال تعالى: [هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات] وقد حكى ابن حبيب النيسابوري في المسألة ثلاثة أقوال:

أحدها: أن القرآن كله محكم، لقوله تعالى: [كتاب أحكمت آياته].

الثاني: كله متشابه، لقوله تعالى: [كتاباً متشابهاً مثاني].

والثالث - وهو الصحيح - انقسامه إلى محكم ومتشابه، للآية المصدر بها.

والجواب عن الآيتين أن المراد بإحكامه اتقانه وعدم تطرق النقض والإختلاف إليه، وبتشابهه كونه يشبه بعضه بعضاً في الحق والصدق والإعجاز.

وقد اختلف في تعيين المحكم والمتشابه على أقوال:

فقيل: المحكم ما عرف المراد منه، إما بالظهور وإما بالتأويل. والمتشابه ما استأثر الله بعلمه، كقيام الساعة وخروج الدجال والحروف المقطعة في أوائل السور.

وقيل: المحكم ما وضح معناه، والمتشابه نقيضه.

وقيل: المحكم ما لا يحتمل من التأويل إلا وجهاً واحداً، والمتشابه ما احتمل أوجهاً.

وقيل: المحكم ما كان معقول المعنى، والمتشابه بخلافه، كأعداد الصلوات واختصاص الصيام برمضان دون شعبان قاله الماوردي. وقيل

المحكم ما استقل بنفسه والمتشابه ما لا يستقل بنفسه إلا برده إلى غيره.

وقيل: المحكم ما تأويله تنزيله والمتشابه ما لا يدرى إلا بالتأويل.

وقيل: المحكم ما لم تتكرر ألفاظه ومقابله المتشابه.

وقيل: المحكم الفرائض والوعد والوعيد، والمتشابه القصص والأمثال.

وأخرج ابن أبي حاتم، من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: المحكمات ناسخه وحلاله وحرامه وحدوده وفرائضه وما يؤمن به ويعمل به. والمتشابهات منسوخه ومقدمه ومؤخره وأمثاله وأقسامه وما يؤمن به ولا يعمل به.

وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك، قال:

المحكمات: ما لم ينسخ منه. والمتشابهات: ما قد نسخ.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن مقاتل بن حيان، قال: المتشابهات فيما بلغنا: آلم، وآلمص، وآلمر، وآلر.

قال ابن أبي حاتم: وقد روي عن عكرمة وقتادة وغيرهما أن المحكم الذي يعمل به، والمتشابه الذي يؤمن به ولا يعمل به.

فصل

اختلف: هل المتشابه مما يمكن الاطلاع على علمه، أولا يعلمه إلا الله على القولين: منشؤهما الاختلاف في قوله: [والراسخون في العلم] هل هو معطوف و [يقولون] حال، أو مبتدأ خبره [يقولون] والواو استئناف، وعلى الأول طائفة يسيرة، منهم مجاهد، وهو رواية عن ابن عباس، فأخرج ابن المنذر من طريق مجاهد عن ابن عباس في قوله: [وما يعلم

تأويله إلا الله والراسخون في العلم]، قال: أنا ممن يعلم تأويله.

وأما الأكثرون من الصحابة والتابعين وأتباعهم ومن بعدهم خصوصاً أهل السنة، فذهبوا إلى الثاني، وهو أصح الروايات عن ابن عباس.

قال الحافظ السيوطي: ويدل لصحة مذهب الأكثرين، ما أخرجه عبد الرزاق في تفسيره والحاكم في مستدركه، عن ابن عباس أنه كان يقرأ: [وما يعلم تأويله إلا الله ويقول الراسخون في العلم آمنا به]. فهذا يدل على أن الواو للاستئناف، لأن هذه الرواية وإن لم تثبت بها القراءة، فأقل درجاتها أن يكون خبراً بإسناد صحيح إلى ترجمان القرآن، فيقدم كلامه في ذلك على من دونه، ويؤيد ذلك أن الآية دلت على ذم متبعي المتشابه ووصفهم بالزيغ وابتغاء الفتنة، وعلى مدح الذين فوضوا العلم إلى الله، وسلموا إليه كما مدح الله المؤمنين بالغيب، وحكى الفَرَّاء أن في قراءة أبي بن كعب أيضاً: [ويقول الراسخون].

وأخرج ابن أبي داود في المصاحف من طريق الأعمش، قال في قراءة ابن مسعود [وإن تأويله إلا عند الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به].

وأخرج الشيخان وغيرهما عن عائشة، قالت: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: [هو الذي أنزل عليك الكتاب] إلى قوله [أولو الألباب] قالت: قال رسول الله ﷺ: «فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذرهم».

وأخرج الطبراني في الكبير عن أبي مالك الأشعري أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا أخاف على أمتي إلا ثلاث خصال: أن يكثر لهم المال فيتحاسدوا فيقتتلوا، وأن يفتح لهم الكتاب، فيأخذه المؤمن يبتغي تأويله: وما يعلم تأويله إلا الله» الحديث.

وأخرج ابن أبي حاتم أيضاً عن عائشة، قالت: «كان رسوخهم في العلم أن آمنوا بمتشابهه، ولا يعلمونه».

وأخرج الدارمي في مسنده، عن سليمان بن يسار، أن رجلا يقال له صبيغ، قدم المدينة، فجعل يسأل عن متشابه القرآن، فأرسل إليه عمر، وقد أعدّله عراجين النخل، فقال: من أنت؟ قال أنا عبد الله بن صبيغ، فأخذ عمر عرجوناً من تلك العراجين، فضربه حتى دمى رأسه، وفي رواية عنده: فضربه بالجريد حتى ترك ظهره دبرة، ثم تركه حتى برأ، ثم عاد له، ثم تركه حتى برأ فدعا به ليعود، فقال إن كنت تريد قتلي فاقتلني قتلاً جميلا فأذن له إلى أرضه، وكتب إلى أبي موسى الأشعري ألا يجالسه أحد من المسلمين.

فهذه الأحاديث والآثار تدل على أن المتشابه مما لا يعلمه إلا الله، وأن الخوض فيه مذموم.

وقد أشار بعضهم إلى حكمة وجود المتشابه في القرآن مع العجز عن معرفته فقال: العقل مبتلى باعتقاد حقيقة المتشابه كابتلاء البدن بأداء العبادة كالحكيم إذا صنف كتاباً أجمل فيه أحياناً ليكون موضع خضوع المتعلم لأستاذه، وكالملك يتخذ علامة يمتاز بها من يطلعه على سره.

وقيل: لو لم يبتل العقل الذي هو أشرف البدن، لاستمر العالم في أبهة العلم على التمرد، فبذلك يستأنس إلى التذلل بعز العبودية، والمتشابه هو موضع خضوع العقول لبارئها استسلاماً واعترافاً بقصورها، وفي ختم الآية بقوله تعالى: [وما يذكر إلا أولو الألباب] تعريض بالزائغين، ومدح للراسخين، يعني من لم يتذكر ويتعظ ويخالف هواه فليس من أولي العقول، ومن ثم قال الراسخون: [ربنا لا تزغ قلوبنا] إلى آخر الآية، فخضعوا لبارئهم لاستنزال العلم اللدني، بعد أن استعاذوا به من الزيغ النفساني.

وإذا علمت أن الخوض في المتشابه مذموم فلا بد من تحديد المتشابه، وهذا هو الأولى ليعلم المذموم فيجتنب، ولذلك قال الخطابي. المتشابه على ضربين:

أحدهما: ما إذا رد إلى المحكم واعتبر به عرف معناه.

والآخر: ما لا سبيل إلى الوقوف على حقيقته، وهو الذي يتبعه أهل الزيغ فيطلبون تأويله ولا يبلغون كنهه، فيرتابون فيه فيفتتنون.

فصل

من المتشابه آيات الصفات، ولابن اللبان فيها تصنيف مفرد، نحو: [الرحمن على العرش استوى]، [كل شيء هالك إلا وجهه] [ويبقى وجه ربك]، [ولتصنع على عيني] [يد الله فوق أيديهم]، [والسموات مطويات بيمينه].

وجمهور أهل السنة منهم السلف وأهل الحديث على الإيمان بها، وتفويض معناها المراد منها إلى الله تعالى، ولا نفسرها مع تنزيهنا له عن حقيقتها المتبادرة إلى الذهن المعروفة من ظاهر اللفظ.

وذهبت طائفة من أهل السنة على أننا نؤولها على ما يليق بجلاله تعالى، وهذا مذهب الخلف. وكان إمام الحرمين يذهب إليه، ثم رجع عنه، فقال في الرسالة النظامية. الذي نرتضيه دينا، وندين الله به عقدا، اتباع سلف الأمة، فإنهم درجوا على ترك التعرض لمعانيها.

وقال ابن الصلاح: على هذه الطريقة مضى صدر الأمة وساداتها، وإياها اختار أئمة الفقهاء وقاداتها، وإليها دعا أئمة الحديث وأعلامه، ولا أحد من المتكلمين من أصحابنا يصدف عنها ويأباها.

وتوسط ابن دقيق العيد فقال: إذا كان التأويل قريباً من لسان العرب لم ينكر، أو بعيداً توقفنا عنه، وآمنا بمعناه على الوجه الذي

أُريد به مع التنزيه، قال: وما كان معناه من هذه الأَلفاظ ظاهراً مفهوماً من تخاطب العرب، قلنا به من غير توقيف كما في قوله تعالى: [يا حسرتى على ما فرطتُ في جنب الله] فنحمله على حق الله وما يجب له.

ومن المتشابه أَوائل السور، والمختار فيها أَيضاً أَنها من الأَسرار التي لا يعلمها إلا الله تعالى، أَخرج ابن المنذر وغيره، عن الشعبي، أَنه سئل عن فواتح السور، فقال: إن لكل كتاب سراً، وإن سر هذا القرآن فواتح السور.

وخاض في معناها آخرون، فأَخرج ابن أَبي حاتم وغيره من طريق أَبي الضحى، عن ابن عباس في قوله: [آلم] قال: أَنا الله أَعلم وفي قوله: [آلمص]، قال: أَنا الله أَفصِل، وفي قوله: [آلر] أَنا الذي أَرى.

في مقدمه ومؤخره

وهو قسمان:

الأول: ما أشكل معناه بحسب الظاهر، فلما عرف أَنه من باب التقديم والتأخيـر اتضح. وهو جدير أَن يفرد بالتصنيف وقد تعرض السلف لذلك في آيات.

فأَخرج ابن أَبي حاتم، عن قتادة في قوله تعالى: [فلا تعجبك أَموالهم ولاأولادهمإنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا]، قال هذا من تقاديم الكلام، يقول: [لا تعجبك أَموالهم ولا أَولادهم في الحياة الدنيا إنما يريد الله ليعذبهم بها أي في الآخرة].

وأَخرج عنه أيضاً في قوله تعالى: [ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاماً وأجل مسمى]، قال: هذا من تقاديم الكلام يقول: لولا كلمة وأَجل مسمى لكان لزاماً.

وأخرج عن مجاهد في قوله تعالى: [أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا، قيماً]، قال،: هذا من التقديم والتأخير، [أنزل على عبده الكتاب قيما ولم يجعل له عوجاً].

وأخرج عن قتادة في قوله تعالى: [إني متوفيك ورافعك إليَّ].

قال: هذا من المقدم والمؤخر، أي رافعك إليَّ ومتوفيك.

وأخرج عن عكرمة في قوله تعالى: [لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب] قال: هذا من التقديم والتأخير، يقول: [لهم يوم الحساب عذاب شديد بما نسوا].

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد في قوله تعالى: [ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلاّ قليلا] قال: هذه الآية مقدمة ومؤخرة، إنما هي: [أذاعوا به إلا قليلا منهم ولولا فضل الله عليكم ورحمته لم ينج قليل ولا كثير].

وأخرج عن ابن عباس في قوله تعالى: [فقالوا أرنا الله جهرة] قال: إنهم إذا رأوا الله، فقد رأوه، إنما [قالوا جهرة: أرنا الله] قال: هو مقدم ومؤخر، قال ابن جرير: يعني أن سؤالهم كان جهرة.

ومنه: [أفرأيت من اتخذ إلهه هواه]: والأصل «هواه إلهه» لأن من اتخذ إلهه هواه غير مذموم، فقدم المفعول الثاني للعناية به.

وقوله تعالى: [والذي أخرج المرعى فجعله غثاء أحوى]. فغثاء معناه: جافا هشياً وأحوى يطلق على الأخضر الذي يضرب إلى السواد وهو لا يكون جافا هشيا إلا بعد كونه أخضر، فحينئذ يكون السياق هكذا: أخرج المرعى أحوى فجعله غثاء. اي أخرج المرعى اخضر شديد الخضرة فجعله جافا هشيا. وقدم غثاء وأخر احوى رعاية للفاصلة.

وقوله: [وغرابيب سود]، والأصل «سود غرابيب» لأن الغربيب الشديد السواد.

وقوله: [فضحكت فبشرناها]، أي فبشرناها فضحكت.

وقوله: [ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه] أي لولا أن رأى برهان ربه لهم بها، وعلى هذا فالهم منفي عنه.

(الثاني): ما ليس كذلك، وقد ألف فيه العلامة شمس الدين بن الصائغ كتابه «المقدمة في سر الألفاظ المقدمة» قال فيه: الحكمة الشائعة الذائعة في ذلك الإهتام كما قال سيبويه في كتابه: كأنهم يقدمون الذي بيانه أهم، وهم ببيانه أعنى.

قال: هذه الحكمة إجالية وأما تفصيل أسباب التقديم وأسراره، فقد ظهر لي منها في الكتاب العزيز عشرة أنواع، منها:

(الأول): التبرك، كتقديم اسم الله تعالى في الأمور ذات الشأن ومنه قوله تعالى: [شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم].

وقوله: [واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول]. الآية.

(الثاني): التعظيم. كقوله: [ومن يطع الله والرسول]، [إن الله وملائكته يصلون]، [والله ورسوله أحق أن يرضوه].

(الثالث): التشريف، كتقديم الذكر على الأنثى، نحو [إن المسلمين والمسلمات] الآية والحر في قوله: [الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى] والحي في قوله: [يخرج الحي من الميت] الآية [وما يستوي الأحياء ولا الأموات]، والخيل في قوله: [والخيل والبغال والحمير لتركبوها] والسمع في قوله: [وعلى سمعهم وعلى أبصارهم] وقوله: [إن السمع والبصر والفؤاد]، وقوله: [إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم]. حكى ابن عطية عن النقاش أنه استدل بها على تفضيل السمع على البصر، ولذا وقع في وصفه تعالى [سميع بصير] بتقديم «السميع».

ومن ذلك تقديمه ﷺ على نوح ومن معه في قوله: [وإذ أخذنا من

النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح] الآية، وتقديم الرسول في قوله: [من رسول ولا نبي]، وتقديم المهاجرين في قوله: [السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار] وتقديم الإنس على الجن حيث ذكرا في القرآن، وتقديم النبيين، ثم الصديقين، ثم الشهداء، ثم الصالحين، في آية النساء، وتقديم إسماعيل على إسحاق لانه أشرف بكون النبي ﷺ من ولده وأسن وتقديم جبريل على ميكائيل في آية البقرة، لأنه أفضل، وتقديم العاقل على غيره في قوله [متاعاً لكم ولأنعامكم]، [يسبح له من في السموات والأرض والطير صافات].

(الرابع): المناسبة، وهي إما مناسبة المتقدم لسياق الكلام كقوله [ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون]، فإن الجمال بالجمال، وإن كان ثابتاً حالتي السراح والإراحة، إلا أنها حالة إراحتها وهو مجيئها من المرعى آخر النهار يكون الجمال بها أفخر، إذ هي فيه بطان، وحالة سراحها للمرعى أول النهار يكون الجمال بها دون الأول، إذ هي فيه خماص، ونظيره قوله: [والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا] قدم نفي الإسراف لأن الشرف في الانفاق.

وقوله: [يريكم البرق خوفاً وطمعاً]، لأن الصواعق تقع مع أول برقة، ولا يحصل المطر إلا بعد توالي البرقات.

(الخامس): الحث عليه والحض على القيام به، حذراً من التهاون به، كتقديم الوصية على الدّين في قوله: [من بعد وصية يوصى بها أو دين] مع أن الدين مقدم عليها شرعاً.

(السادس): السبق، وهو إما في الزمان باعتبار الإيجاد كتقديم الليل على النهار، والظلمات على النور، وآدم على نوح، ونوح على إبراهيم، وإبراهيم على موسى، وهود على عيسى، وداود على سليمان، والملائكة على البشر في قوله: [الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس] وعاد على

ثمود، والأزواج على الذرية في قوله: [قل لأزواجك وبناتك] والسِّنة على النوم في قوله تعالى: [لا تأخذه سنة ولا نوم].

أو باعتبار الإنزال، كقوله: [صحف إبراهيم وموسى]، [وأنزل التوراة والإنجيل، من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان].

أو باعتبار الوجوب والتكليف، نحو: [اركعوا واسجدوا]، [فاغسلوا وجوهكم وأيديكم] الآية [إن الصفا والمروة من شعائر الله] ولهذا قال ﷺ [نبدأ بما بدأ الله به].

أو بالذات، نحو: [مثنى وثلاث ورباع].

(السابع): السببية، كتقديم العزيز على الحكيم، لأنه عز فحكم والعليم عليه لأن الإحكام والإتقان ناشئ عن العلم، وأما تقديم الحكيم عليه في سورة الأنعام فلأنه مقام تشريع الأحكام.

ومنه تقديم العبادة على الإستعانة في سورة الفاتحة، لأنها سبب حصول الإعانة. وكذا قوله: [يحب التوابين ويحب المتطهرين] لأن التوبة سبب الطهارة، [لكل أفاك أثيم] لأنَّ الإفك سبب الإثم [يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم] لأن البصر داعية إلى الفرج.

(الثامن): الكثرة، كقوله: [فمنكم كافر ومنكم مؤمن]، لأن الكافر أكثر. [فمنهم ظالم لنفسه] الآية، قدم الظالم لكثرته، ثم المقتصد ثم السابق، ولهذا قدم السارق على السارقة لأن السرقة في الذكور أكثر، والزانية على الزاني لأن الزنى فيهن أكثر.

ومنه تقديم الرحمة على العذاب حيث وقع في القرآن غالباً، ولهذا ورد: «إن رحمتي غلبت غضبي».

(التاسع): الترقي من الأدنى إلى الأعلى، كقوله: [ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها] الآية. بدأ بالأدنى لغرض التّرقي، لأن اليد

أشرف من الرجل، والعين أشرف من اليد، والسمع أشرف من البصر، ومن هذا النوع تأخير الأبلغ، وقد خرج عنه تقديم الرحمن على الرحيم، والرؤوف على الرحيم، والرسول على النبي، في قوله [وكان رسولاً نبياً]، وذكر لذلك نكت أشهرها مراعاة الفاصلة.

(العاشر): التدلي من الأعلى إلى الأدنى، وخرج عنه: [لا تأخذه سنة ولا نوم]، [لا يغادر صغيرة ولا كبيرة]،

في عامه وخاصه

العام لفظ يستغرق الصالح له من غير حصر، وصيغته «كل» مبتدأة نحو: [كل من عليها فان]، أو تابعة، نحو: [فسجد الملائكة كلهم أجمعون].

والذي والتي وتثنيتها وجمعها، نحو: [والذي قال لوالديه أف لكما] فإن المراد به كل من صدر منه هذا القول، بدليل قوله بعد: [أولئك الذين حق عليهم القول]، [والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة]، [للذين أحسنوا الحسنى وزيادة]، [للذين اتقوا عند ربهم جنات] [واللائي يئسن من المحيض] الآية [واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا...] الآية [واللذان يأتيانها منكم فآذوهما] وأي وما ومن، شرطا واستفهاماً وموصولا، نحو: [أيّاً ما تدعو فله الأسماء الحسنى]، [إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم]، [من يعمل سوءاً يجز به].

والجمع المضاف، نحو: [يوصيكم الله في أولادكم]، والمعرف بأل نحو: [قد أفلح المؤمنون]، [واقتلوا المشركين].

واسم الجنس المضاف، نحو: [فليحذر الذين يخالفون عن أمره] أي كل أمر الله.

والمعروف بأل ، نحو : [وأحل الله البيع] ، أي كل بيع [إن الإنسان لفي خسر] أي كل إنسان ، بدليل [إلا الذين امنوا] والنكرة في سياق النفي والنهي ، نحو : [فلا تقل لهما أف] [وإن من شيء إلا عندنا خزائنه] ، [ذلك الكتاب لاريب فيه] ، [فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج] ، وفي سياق الشرط نحو : [وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله] ، وفي سياق الإمتنان ، نحو [وأنزلنا من السماء ماءً طهوراً] والعام المخصوص أمثلته في القرآن كثيرة جدا ، وهو أكثر من المنسوخ ، إذ ما من عام إلا وقد خص إلا آيات قليلة منها قوله تعالى : [والله بكل شيىء عليم] ومنها : [والله خلقكم من نفس واحدة] ومنها : [حرمت عليكم أمهاتكم] .

ومن أمثلة ماخص بالقرآن قوله تعالى : [والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروءً] خص بقوله : [إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فمالكم عليهن من عدة] ، وبقوله : [وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن].

وقوله: [حرمت عليكم الميتة والدم] خص من الميتة السمك بقوله: [أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعاً لكم وللسيارة]، ومن الدم الجامد بقوله [أو دماً مسفوحاً].

وقوله: [وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً]، الآية خص بقوله تعالى: [فلا جناح عليهما فيما افتدت به].

وقوله: [الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة] خص بقوله: [فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب].

وقوله: [فانكحوا ما طاب لكم من النساء] خص بقوله: [حرمت عليكم أمهاتكم...] الآية.

ومن أمثلة ما خص بالحديث قوله تعالى: [وأحل الله البيع] خص منه البيوع الفاسدة وهي كثيرة بالسنة، [وحرم الربا] خص منه العرايا بالسنة.

وآيات المواريث خص منها القاتل والمخالف في الدين بالسنة وآيات تحريم الميتة خص منها الجراد بالسنة، وآية [ثلاثة قروء] خص منها الأمة بالسنة.

وقوله: [ماءً طهوراً] خص منه المتغيّر بالسنة.

وقوله: [والسارق والسارقة فاقطعوا]، خص منه من سرق دون ربع دينار بالسنة.

ومن أمثلة ما خص بالإجماع آية المواريث، خص منها الرقيق فلا يرث بالإجماع، ذكره مكي.

ومن أمثلة ما خص بالقياس آية الزنا: [فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة] خص منها العبد بالقياس على الأمة المنصوصة في قوله: [فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب] المخصص لعموم الآية، ذكره مكي أيضاً.

فصل

من خاص القرآن ما كان مخصصاً لعموم السنة، وهو عزيز ومن أمثلته قوله تعالى: [حتى يعطوا الجزية]، خص عموم قوله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله».

وقوله: [حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى] خص عموم نهيه ﷺ عن الصلاة في الأوقات المكروهة بإخراج الفرائض.

وقوله: [ومن أصوافها وأوبارها] الآية، خص عموم قوله ﷺ: «ما أبين من حي فهو ميت».

وقوله: [والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم] خص عموم قوله ﷺ «لا تحل الصدقة لغني ولا لذي مرة سوي».

وقوله: [فقاتلوا التي تبغي] خص عموم قوله ﷺ: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما، فالقاتل والمقتول في النار».

فروع

منثورة تتعلق بالعموم والخصوص

الأول: إذا سيق العام للمدح أو الذم، فهل هو باق على عمومه؟ فيه مذاهب:

أحدها: نعم، إذ لا صارف عنه، ولا تنافي بين العموم وبين المدح أو الذم.

والثاني: لا، لأنه لم يسق للتعميم بل للمدح أو للذم.

والثالث: وهو الأصح: التفصيل، فيعم إن لم يعارضه عام آخر لم يسق لذلك، ولا يعم إن عارضه ذلك، جمعا بينهما. مثاله ولا معارض قوله تعالى: [إن الأبرار لفي نعيم، وإن الفجار لفي جحيم].

ومع المعارض قوله تعالى: [والذين هم لفروجهم حافظون، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم]، فإنه سيق للمدح، وظاهره يعم الأختين بملك اليمين جمعا، وعارضه في ذلك [وأن تجمعوا بين الأختين] فإنه شامل لجمعهما بملك اليمين ولم يسق للمدح، فحمل الأول على ذلك بأن لم يرد تناوله له.

ومثاله في الذم: [والذين يكنزون الذهب والفضة] الآية، فإنه سيق للذم، وظاهره يعم الحلي المباح، وعارضه في ذلك حديث جابر: «ليس في الحلي زكاة» فحمل الأول على غير ذلك.

الثاني: اختلف في الخطاب الخاص به ﷺ، نحو: [يا أيها النبي] [يا أيها الرسول]، هل يشمل الأمة؟ فقيل: نعم، لأن أمر القدوة أمر

لأتباعه معه عرفا، والأصح في الأصول المنع لاختصاص الصيغة به.

الثالث: اختلف في الخطاب: بـ [يا أيها الناس] هل يشمل الرسول ﷺ؟ على مذاهب:

أصحها - وعليه الأكثرون -: نعم لعموم الصيغة له، أخرج ابن أبي حاتم عن الزهري قال: إذا قال الله: [يا أيها الذين آمنوا افعلوا] فالنبي ﷺ منهم.

والثاني: لا، لأنه ورد على لسانه لتبليغ غيره، ولماله من الخصائص.

والثالث: إن اقترن بـ «قل» لم يشمله لظهوره في التبليغ، وذلك قرينة عدم شموله، وإلا فيشمله.

الرابع: الأصح في الأصول أن الخطاب بـ «يا أيها الناس» يشمل الكافر والعبد، لعموم اللفظ.

وقيل: لا يعم الكافر بناءً على عدم تكليفه بالفروع، ولا العبد، لصرف منافعه إلى سيده شرعاً.

الخامس: اختلف في «من» هل يتناول الأنثى؟ فالأصح نعم، خلافاً للحنفية، لنا قوله تعالى: [ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى] فالتفسير بهما دالّ على تناول «من» لهما، وقوله تعالى: [من يقنت منكن لله].

واختلف في جمع المذكر السالم هل يتناولها؟ فالأصح لا، وإنما يدخلن فيه بقرينة، أما المكسر فلا خلاف في دخولهن فيه.

السادس: اختلف في الخطاب بـ «يا أهل الكتاب» هل يشمل المؤمنين؟ فالأصح لا، لأن اللفظ قاصر على من ذكر. وقيل: إن شاركوهم في المعنى شملهم، وإلا فلا.

واختلف في الخطاب بـ « يا أيها الذين آمنوا » هل يشمل أهل الكتاب؟

فقيل: لا ، بناءً على أنهم غير مخاطبين بالفروع. وقيل : نعم، واختاره ابن السمعاني، قال: وقوله: [يا أيها الذين آمنوا] خطاب تشريف لا تخصيص.

في مجمله ومبينه

المجمل ما لم تتضح دلالته، وهو واقع في القرآن خلافاً لداود الظاهري، وفي جواز بقائه مجملا أقوال، أصحها: لا يبقى المكلف بالعمل به بخلاف غيره.

واختلف في آيات، هل هي من قبيل المجمل أولا؟

منها آية السرقة، قيل: إنها مجملة في اليد، لأنها تطلق على العضو إلى الكوع، وإلى المرفق، وإلى المنكب، وفي القطع لأنه يطلق على الإبانة، وعلى الجرح ولا ظهور لواحد من ذلك وإبانة الشارع من الكوع تبين أن المراد ذلك. وقيل: لا إجمال فيها لأن القطع ظاهر في الإبانة.

ومنها: [وامسحوا برؤسكم] قيل: إنها مجملة لترددها بين مسح الكل والبعض، ومسح الشارع الناصية مبين لذلك، وقيل: لا ، وإنما هي لمطلق المسح الصادق بأقل ما ينطلق عليه الإسم ويفيده.

ومنها الآيات التي فيها الأسماء الشرعية، نحو: [وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة] [فمن شهد منكم الشهر فليصمه] [ولله على الناس حج البيت].

قيل: إنها مجملة لاحتمال الصلاة لكل دعاءٍ، والصوم لكل إمساك والحج لكل قصد، والمراد بها لا تدخل عليه اللغة، فافتقر إلى البيان. وقيل: لا ، بل يحمل على كل ما ذكر إلا ما خص بدليل.

في ناسخه ومنسوخه

وفي هذا النوع مسائل:

الأولى: يرد النسخ بمعنى الازالة، ومنه قوله: [فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته].

وبمعنى التبديل، ومنه: [وإذا بدلنا آية مكان آية].

وبمعنى التحويل، كتناسخ المواريث، بمعنى تحويل الميراث من واحد إلى واحد.

وبمعنى النقل من موضع إلى موضع، ومنه: نسخت الكتاب. إذا نقلت ما فيه حاكياً للفظه وخطه.

الثانية: النسخ مما خص الله به هذه الأمة لحكم، منها: التيسير.

وقد أجمع المسلمون على جوازه، وأنكره اليهود ظناً منهم أنه بداء، كالذي يرى الرأي ثم يبدو له، وهو باطل لأنه بيان مدة الحكم كالإحياء بعد الإماتة وعكسه، والمرض بعد الصحة وعكسه، والفقر بعد الغنى وعكسه. وذلك لا يكون بداء، فكذا الأمر والنهي.

واختلف العلماء في الناسخ فقيل: لا ينسخ القرآن إلا بالقرآن لقوله تعالى: [ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها] قالوا: ولا يكون مثل القرآن وخيراً منه إلا قرآن.

وقيل: بل ينسخ القرآن بالسنة، لأنها أيضاً من عند الله، قال تعالى: [وما ينطق عن الهوى] وجعل منه آية الوصية الآتية.

الثالثة: لا يقع النسخ إلا في الأمر والنهي، ولو بلفظ الخبر، أما الخبر الذي ليس بمعنى الطلب فلا يدخله النسخ، ومنه الوعد والوعيد. وإذا عرفت ذلك عرفت فساد صنع من أدخل في كتب النسخ كثيراً من

آيات الإخبار والوعد والوعيد.

الرابعة: النسخ أقسام.

أحدها: نسخ المأمور به قبل امتثاله، وهو النسخ على الحقيقة كآية النجوى.

الثاني: نسخ ما كان شرعاً لمن قبلنا، كآية شرع القصاص والدية أو كان أمر به أمراً إجمالياً كنسخ التوجه إلى بيت المقدس بالكعبة، وصوم عاشوراء برمضان، وإنما يسمى هذا نسخاً تجوزاً.

الثالث: ما أمر به لسبب، ثم يزول السبب، كالأمر حين الضعف والقلة بالصبر والصفح، ثم نسخ بإيجاب القتال، وهذا في الحقيقة ليس نسخاً بل هو من قسم المنسأ كما قال تعالى: [أو ننسأها]، فالمنسأ هو الأمر بالقتال إلى أن يقوى المسلمون، وفي حال الضعف يكون الحكم وجوب الصبر على الأذى، وبهذا يضعف ما لهج به كثيرون من أن الآية في ذلك منسوخة بآية السيف، وليس كذلك، بل هي المنسأ بمعنى أن كل أمر ورد يجب امتثاله في وقت ما، لعلة تقتضي ذلك الحكم، ثم ينتقل بانتقال تلك العلة إلى حكم آخر، وليس بنسخ، إنما النسخ الازالة للحكم حتى لا يجوز امتثاله.

الخامسة: قال بعضهم: سور القرآن باعتبار الناسخ والمنسوخ أقسام:

قسم ليس فيه ناسخ ولا منسوخ، وهو ثلاثة وأربعون: سورة الفاتحة ويوسف، ويس، والحجرات، والرحمن، والحديد، والصف، والجمعة، والتحريم، والملك، والحاقة، ونوح، والجن، والمرسلات، وعم، والنازعات، والانفطار، وثلاث بعدها، والفجر وما بعدها إلى آخر القرآن، إلا التين والعصر، والكافرين.

وقسم فيه الناسخ والمنسوخ، وهو خمسة وعشرون: البقرة وثلاث بعدها والحج، والنور، وتالياها والأحزاب، وسبأ، والمؤمن، والشورى،

والذاريات، والطور، والواقعة، والمجادلة، والمزمل، والمدثر، وكورت والعصر.

وقسم فيه الناسخ فقط، وهو ستة: الفتح، والحشر، والمنافقون، والتغابن، والطلاق، والأعلى.

وقسم فيه المنسوخ فقط، وهو الأربعون الباقية، كذا قال وهذا بناء على عدّ المنسأ والمخصوص من المنسوخ.

السادسة: النسخ في القرآن على ثلاثة أضرب:

أحدها: ما نسخ تلاوته وحكمه معاً، قالت عائشة: كان فيما أُنزل «عشر رضعات معلومات فنسخن بخمس معلومات، فتوفي رسول الله ﷺ وهن مما يقرأ من القرآن، رواه الشيخان. وقد تكلموا في قولها: «وهن مما يقرأ» فإن ظاهره بقاء التلاوة، وليس كذلك.

وأُجيب بأن المراد: قارب الوفاة، أو أن التلاوة نسخت أيضاً، ولم يبلغ ذلك كل الناس إلا بعد وفاة رسول الله ﷺ فتوفي وبعض الناس يقرؤها.

الضرب الثاني: ما نسخ حكمه دون تلاوته، وهذا الضرب هو الذي فيه الكتب المؤلفة، وهو على الحقيقة قليل جداً، وإن أكثر الناس من تعداد الآيات فيه، فإن المحققين منهم كالقاضي أبي بكر بن العربي بين ذلك وأتقنه.

ومنه قوله تعالى: [كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت...] الآية منسوخة قيل بآية المواريث، وقيل بحديث «ألا لا وصية لوارث» وقيل: بالإجماع حكاه ابن العربي.

قوله تعالى: [وعلى الذين يطيقونه فدية] قيل: منسوخة بقوله: [فمن شهد منكم الشهر فليصمه]. وقيل: محكمة ولا مقدرة.

وقوله: [أحل لكم ليلة الصيام الرفث]، ناسخة لقوله: [كما كتب على الذين من قبلكم] لأن مقتضاها الموافقة فيما كان عليهم من تحريم الأكل والوطء بعد النوم، ذكره ابن العربي. وحكى قولا آخر أنه نسخ لما كان بالسنة.

قوله تعالى: [يسألونك عن الشهر الحرام] الآية منسوخة بقوله: [وقاتلوا المشركين كافة] الآية، أخرجه ابن جرير عن عطاء بن ميسرة.

قوله تعالى: [والذين يتوفون منكم] إلى قوله: [متاعا إلى الحول] منسوخة بآية أربعة أشهر وعشرا، والوصية منسوخة بالميراث والسكنى ثابتة عند قوم منسوخة عند آخرين بحديث «ولا سكنى».

وقوله تعالى: [وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله] منسوخة بقوله بعده: [لا يكلف الله نفساً إلا وسعها].

وقوله تعالى: [اتقوا الله حق تقاته] قيل: إنه منسوخ بقوله: [فاتقوا الله ما استطعتم] وقيل: لا، بل هو محكم وليس في آل عمران آية يصح فيها دعوى النسخ غير هذه الآية.

ومنه قوله تعالى: [لا يحل لك النساء..] الآية، منسوخة بقوله [إنا أحللنا لك أزواجك] الآية.

ومنه قوله تعالى: [إذا ناجيتم الرسول فقدموا] الآية منسوخة بالآية بعدها.

فإن قلت ما الحكمة في رفع الحكم وبقاء التلاوة؟

فالجواب من وجهين:

أحدهما: أن القرآن كما يتلى ليعرف الحكم منه والعمل به، فيتلى لكونه كلام الله فيثاب عليه، فتركت التلاوة لهذه الحكمة.

والثاني: أن النسخ غالباً يكون للتخفيف، فأبقيت التلاوة تذكيرا

للنعمة برفع المشقة، وأما ما ورد في القرآن ناسخاً لما كان عليه الجاهلية أو كان في شرع من قبلنا، أو في أول الإسلام، فهو أيضاً قليل العدد، كنسخ استقبال بيت المقدس بآية القبلة، وصوم عاشوراء بصوم رمضان.

الضرب الثالث: ما نسخ تلاوته دون حكمه.

يعني أن النسخ هنا بالنسبة للتلاوة فقط فلا تثبت قرآنيته فلا يثاب على قراءته ثواب القرآن. وأما حكمه فباق يعمل به.

وأمثلة هذا الضرب كثيرة.

روى أبو عبيد عن زر بن حبيش قال لي أُبيّ بن كعب: كأيّن تعدّ سورة الأحزاب؟ قلت: اثنتين وسبعين آية أو ثلاثة وسبعين آية. قال: إن كانت تعدل سورة البقرة وإن كنا لنقرأ فيها آية الرجم. قلت: وما آية الرجم؟ قال: [إذا زنى الشيخ والشيخة فارجموهما البتة نكالا من الله. والله عزيز حكيم].

وعن أبي موسى الأشعري قال: نزلت سورة نحو براءة ثم رفعت وحفظ منها [ان الله سيؤيد هذا الدين بأقوام لاخلاق لهم ولو أن لابن آدم واديين من مال لتمنى واديا ثالثا ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب].

وحكمة هذا الضرب ظهور طاعة هذه الأمة في المسارعة إلى بذل النفوس استجابة لحكم الله بطريق الظن من غير استفصال، فيسرعون بأيسر شيء كما سارع الخليل إلى ذبح ولده بمنام. وهو أدنى طريق الوحي.

فوائد منثورة

قال بعضهم: ليس في القرآن ناسخ إلا والمنسوخ قبله في الترتيب إلا في آيتين: آية العدة في البقرة، وقوله [لا يحل لك النساء] منسوخة بقوله: [إنا أحللنا لك أزواجك].

وزاد بعضهم ثالثة: وهي آية الحشر في الفيء على رأي من قال إنها منسوخة بآية الأنفال: [واعلموا أنما غنمتم من شيء].

وزاد قوم رابعة وهي قوله: [خذ العفو] يعني الفضل من أموالهم على رأي من قال إنها منسوخة بآية الزكاة.

وقال ابن العربي: كل ما في القرآن من الصفح عن الكفار والتولي والإعراض والكف عنهم فهو منسوخ بآية السيف، وهي: [فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين] الآية، نسخت مائة وأربعا وعشرين آية، ثم نسخ آخرها أولها. انتهى وكلامه هذا فيه كما تقدم

وقال أيضا : بناء على كلامه المذكور : من عجيب المنسوخ قوله تعالى : [خذ العفو] الآية فإن أولها وآخرها وهو : [وأعرض عن الجاهلين] منسوخ ، ووسطها محكم وهو : [وأمر بالعرف] .

وقال: ومن عجيبه أيضاً آية أولها منسوخ وآخرها ناسخ، ولا نظير لها وهي قوله: (عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم) فقوله : إذا اهتديتم يعنى بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فهذا ناسخ لقوله : [عليكم أنفسكم] .

تنبيه

قال ابن الحصار: إنما يرجع في النسخ إلى نقل صريح عن رسول الله ﷺ أو عن صحابي يقول: آية كذا نسخت كذا.

قال: وقد يحكم به عند وجود التعارض المقطوع به مع علم التاريخ ليعرف المتقدم والمتأخر.

قال: ولا يعتمد في النسخ قول عوام المفسرين، بل ولا اجتهاد المجتهدين من غير نقل صحيح، ولا معارضة بينة، لأن النسخ يتضمن رفع حكم وإثبات حكم تقرر في عهده ﷺ. والمعتمد فيه النقل والتاريخ دون الرأي والاجتهاد.

في مشكله وموهم الاختلاف والتناقض

وكلامه تعالى منزه عن ذلك كما قال: [ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً] ولكن قد يقع للمبتدىء ما يوهم اختلافاً وليس به في الحقيقة فاحتيج لإزالته، كما صنف في مختلف الحديث وبيان الجمع بين الأحاديث المتعارضة، وقد تكلم في ذلك ابن عباس، وحكي عنه التوقف في بعضها.

قال عبد الرزاق في تفسيره: أنبأنا معمر، عن رجل، عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير، قال: جاء رجل إلى ابن عباس، فقال: رأيت أشياء تختلف عليّ من القرآن، فقال ابن عباس: ما هو؟ أشك قال: ليس بشك، ولكنه اختلاف، قال: هات ما اختلف عليك من ذلك،.

قال: اسمع الله يقول: [ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين]، وقال: [ولا يكتمون الله حديثاً] فقد كتموا، وأسمعه يقول: [فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون] ثم قال: [وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون] وقال: [أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في

يومين] حتى بلغ [طائعين] ثم قال في الآية الأخرى: [أم السماء بناها] ثم قال: [والأرض بعد ذلك دحاها] واسمعه يقول: [كان الله] ما شأنه يقول: [وكان الله].

فقال ابن عباس: أما قوله: [ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين] فإنهم لما رأوا يوم القيامة، وأن الله يغفر لأهل الإسلام ويغفر الذنوب ولا يغفر شركا، ولا يتعاظمه ذنب أن يغفره، جحده المشركون رجاء أن يغفر لهم فقالوا والله ربنا ما كنا مشركين فختم الله على أفواههم، وتكلمت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون، فعند ذلك يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثاً واما قوله [فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون] فانه اذا - نفخ في الصور فصعق من السموات ومن في الارض إلا من شاء الله فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون واقبل بعضهم على بعض يتساءلون.

وأما قوله: [خلق الأرض في يومين] فإن الأرض خلقت قبل السماء وكانت السماء دخاناً فسواهن سبع سموات في يومين بعد خلق الأرض وأما قوله: [والأرض بعد ذلك دحاها] يقول: جعل فيها جبلا، وجعل فيها نهراً، وجعل فيها شجراً، وجعل فيها بحوراً.

وأما قوله: [كان الله]، فإن الله كان ولم يزل كذلك، وهو كذلك عزيز حكيم عليم قدير، لم يزل كذلك.

فما اختلف عليك من القرآن فهو يشبه ما ذكرت لك، وإن الله لم ينزل شيئاً إلا وقد أصاب به الذي أراد، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

أخرجه بطوله الحاكم في المستدرك وصححه، وأصله في الصحيح قال ابن حجر في شرحه: حاصل ما فيه السؤال عن أربعة مواضع:

الأول: نفي المسألة يوم القيامة وإثباتها.
الثاني: كتمان المشركين حالهم وإفشاؤهم.
الثالث: خلق الأرض أو السماء، أيهما تقدم.
الرابع: الإتيان بحرف «كان» الدالة على المضي مع أن الصفة لازمة
وحاصل جواب ابن عباس عن الأول، أن نفي المسألة فيما قبل النفخة الثانية، وإثباتها فيما بعد ذلك.

وعن الثاني، أنهم يكتمون بألسنتهم، فتنطق أيديهم وجوارحهم.

وعن الثالث: أنه بدأ خلق الأرض في يومين غير مدحوة، ثم خلق السموات فسواهن في يومين، ثم دحا الأرض بعد ذلك وجعل فيها الرواسي وغيرها في يومين، فتلك أربعة أيام للأرض.

وعن الرابع: بأن «كان» وإن كانت للماضي، لكنها لا تستلزم الانقطاع بل المراد أنه لم يزل كذلك.

وهناك موضع توقف فيه ابن عباس، قال أبو عبيد: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم عن أيوب، عن ابن أبي مليكة، قال: سأل رجل ابن عباس عن: قوله تعالى: [في يوم كان مقداره ألف سنة] وقوله: [في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة] فقال ابن عباس: هما يومان ذكرهما الله تعالى في كتابه الله أعلم بهما.

قال الزركشي في البرهان: للاختلاف أسباب:

أحدها: وقوع المخبر به على أنواع مختلفة وتطويرات شتى، كقوله في خلق آدم: [من تراب] ومرة: [من حمأ مسنون] ومرة: [من طين لازب] ومرة [من صلصال كالفخار] فهذه الألفاظ مختلفة ومعانيها في أحوال مختلفة لأن الصلصال غير الحمأ، والحمأ غير التراب، إلا أن مرجعها كلها إلى جوهر وهو التراب ومن التراب تدرجت هذه الأحوال.

الثاني: لاختلاف الموضع، كقوله: [وقفوهم إنهم مسئولون] وقوله

[فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين] مع قوله: [فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان]، قال الحليمي: فتحمل الآية الأولى على السؤال عن التوحيد وتصديق الرسل، والثانية على ما يستلزمه الإقرار بالنبوات من شرائع الدين وفروعه.

وحمله غيره على اختلاف الأماكن، لأن في القيامة مواقف كثيرة ففي موضع يسألون، وفي آخر لا يسألون. وقيل إن السؤال المثبت سؤال تبكيت وتوبيخ، والمنفي سؤال المعذرة وبيان الحجة.

الثالث: لاختلافهما في جهتي الفعل، كقوله: [فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت] أضيف القتل إليهم والرمي إليه ﷺ على جهة الكسب والمباشرة، ونفاه عنهم وعنه باعتبار التأثير.

الرابع: لاختلافهما في الحقيقة والمجاز، كقوله: [وترى الناس سكارى وما هم بسكارى] أي سكارى من الأهوال مجازا، لا من الشراب حقيقة.

الخامس: بوجهين واعتبارين كقوله: [الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله] مع قوله: [إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم] فقد يظن أن الوجل خلاف الطمأنينة..

وجوابه: أن الطمأنينة تكون بانشراح الصدر بمعرفة التوحيد، والوجل يكون عند خوف الزيغ والذهاب عن الهدى، فتوجل القلوب لذلك وقد جمع بينهما في قوله: [تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله].

ومما استشكل أيضاً قوله تعالى: [فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا] [فمن أظلم ممن كذب على الله] مع قوله: [ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فاعرض عنها ونسي ما قدمت يداه]، [ومن أظلم ممن منع مساجد الله] إلى غير ذلك من الآيات. ووجه الاشكال أن المراد بالاستفهام هنا

النفي، والمعنى: «لا أحد أظلم» فيكون خبراً. وإذا كان خبراً وأخذت الآيات على ظواهرها أدى إلى التناقض. وأجيب بأوجه:

منها تخصيص كل موضع بمعنى صلته، أي لا أحد من المانعين أظلم ممن منع مساجد الله، ولا أحد من المفترين أظلم ممن افترى على الله كذباً، وإذا تخصص بالصلات فيها زال التناقض.

في مطلقه ومقيده

المطلق الدال على الماهية بلا قيد، وهو مع المقيد كالعام مع الخاص، قال العلماء: متى وجد دليل على تقييد المطلق صير إليه والا فلا، بل يبقى المطلق على إطلاقه، والمقيد على تقييده، لأن الله تعالى خاطبنا بلغة العرب.

والضابط أن الله إذا حكم في شيء بصفة أو شرط، ثم ورد حكم آخر مطلقاً نظر، فإن لم يكن له أصل يرد إليه إلا ذلك الحكم المقيد وجب تقييده به، وإن كان له أصل غيره لم يكن رده إلى أحدهما بأولى من الآخر. فالأول مثل اشتراط العدالة في الشهود على الرجعة والفراق والوصية في قوله: [وأشهدوا ذوي عدل منكم] وقوله: [شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم] وقد أطلق الشهادة في البيوع وغيرها في قوله: [وأشهدوا إذا تبايعتم]، [فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم].

والعدالة شرط في الجميع:

وكذلك ما اشترط في كفارة القتل من الرقبة المؤمنة، وإطلاقها في كفارة الظهار واليمين، والمطلق كالمقيد في وصف الرقبة.

وكذلك تقييد الأيدي بقوله: [إلى المرافق] في الوضوء وإطلاقه في التيمم.

وتقييد إحباط العمل بالردة بالموت على الكفر في قوله: [ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر] الآية، وأطلق في قوله: [ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله].

وتقييد تحريم الدم بالمسفوح في الأنعام، وأطلق فيما عداها فمذهب الشافعي حمل المطلق على المقيد في الجميع.

ومن العلماء من لا يحمله ويجوز إعتاق الكافرة في كفارة الظهار واليمين، ويكتفي في التيمم بالمسح إلى الكوعين ويقول: إن الردة تحبط العمل بمجردها.

والثاني: مثل تقييد الصوم بالتتابع في كفارة القتل والظهار، وتقييده بالتفريق في صوم التمتع، وأطلق كفارة اليمين وقضاء رمضان فيبقى على إطلاقه من جوازه مفرقا ومتتابعا.

في منطوقه ومفهومه

المنطوق ما دل عليه اللفظ في محل النطق، فإن أفاد معنى لا يحتمل غيره فالنص نحو، [فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة].

أو مع احتمال غيره احتمالا مرجوحاً، فالظاهر نحو: [فمن اضطر غير باغ ولا عاد] فإن الباغي يطلق على الجاهل وعلى الظالم، وهو فيه أظهر وأغلب، ونحو [ولا تقربوهن حتى يطهرن] فإنه يقال للانقطاع طهر، وللوضوء والغسل وهو في الثاني أظهر.

فإن حمل على المرجوح لدليل فهو تأويل، ويسمى المرجوح المحمول عليه مؤولا، كقوله: [وهو معكم أينما كنتم] فإنه يستحيل حمل المعية على القرب بالذات، فتعين صرفه عن ذلك، وحمله على القدرة والعلم أو على الحفظ والرعاية.

وكقوله، [واخفض لهما جناح الذل من الرحمة] فإنه يستحيل حمله على الظاهر، لاستحالة أن يكون للإنسان أجنحة، فيحمل على الخضوع

وحسن الخلق.

والمفهوم ما دل عليه اللفظ. لا في محل النطق، وهو قسمان، مفهوم موافقة. ومفهوم مخالفة.

فالأول: ما يوافق حكمه المنطوق، فإن كان أولى سمي فحوى الخطاب كدلالة: [فلا تقل لهما أف] على تحريم الضرب لأنه أشد، وإن كان مساوياً سمي لحن الخطاب، أي معناه، كدلالة: [إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً] على تحريم الإحراق لأنه مساوٍ للأكل في الإتلاف.

والثاني: ما يخالف حكمه المنطوق، وهو أنواع:

مفهوم صفة، نعتاً كان أو حالا أو ظرفاً أو عدداً، نحو: [إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا] مفهومه أن غير الفاسق لا يجب التبين في خبره فيجب قبول خبر الواحد العدل.

وشرط، نحو: [وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن] أي فغير أولات الحمل لا يجب الإنفاق عليهن.

وغاية، نحو: [فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره] أي فإذا نكحته فإنها تحل للأول بشرطه.

وحصر نحو: [لا إله إلا الله]، [إنما إلهكم الله] أي فغيره ليس بإله [فالله هو الولي] أي فغيره ليس بولي [لإلى الله تحشرون] أي لا إلى غيره [إياك نعبد] أي لا غيرك.

واختلف في الاحتجاج بهذه المفاهيم على أقوال كثيرة والأصح في الجملة أنها كلها حجة بشروط تطلب في كتب الأصول.

في وجوه مخاطباته

قال ابن الجوزي في كتابه «النفيس»: الخطاب في القرآن على خمسة عشر وجهاً.

وقال غيره: على أكثر من ثلاثين وجهاً: ونذكر بعضها:

أحدها: خطاب العام، والمراد به العموم، كقوله: [الله الذي خلقكم].

والثاني: خطاب الخاص والمراد به الخصوص، كقوله [أكفرتم بعد إيمانكم]، [يا أيها الرسول بلغ].

والثالث: خطاب العام والمراد به الخصوص، كقوله: [يا أيها الناس اتقوا ربكم]، لم يدخل فيه الأطفال والمجانين.

الرابع: خطاب الخاص والمراد به العموم، كقوله: [يا أيها النبي إذا طلقتم النساء] افتتح الخطاب بالنبي ﷺ، والمراد سائر من يملك الطلاق، وقوله: [يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك] الآية، قال أبو بكر الصيرفي كان ابتداءُ الخطاب له، فلما قال في الموهوبة: [خالصة لك] علم أن ما قبلها له ولغيره.

الخامس: خطاب الجنس، كقوله: [يا أيها النبي].

السادس: خطاب النوع، نحو: [يا بني إسرائيل].

السابع: خطاب العين، نحو [وقلنا يا آدم اسكن]، [يا نوح اهبط] [يا إبراهيم قد صدقت]، [يا موسى لا تخف] [يا عيسى إني متوفيك] ولم يقع في القرآن الخطاب بـ«يا محمد» بل: [يا أيها النبي] [يا أيها الرسول]، تعظيما له وتشريفاً وتخصيصا له بذلك عما سواه وتعليما للمؤمنين أن لا ينادوه باسمه.

الثامن: خطاب المدح، نحو: [يا أيها الذين آمنوا]، ولهذا وقع خطاباً لأهل المدينة، الذين آمنوا وهاجروا.

التاسع: خطاب الذم، نحو: [يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم] [قل يا أيها الكافرون].

العاشر: خطاب الكرامة، كقوله: [يا أيها النبي]، [يا أيها الرسول].

الحادي عشر: خطاب الإهانة، نحو: [فإنك رجيم] [إخسئوا فيها ولا تكلمون].

الثاني عشر: خطاب التهكم، نحو: [ذق إنك أنت العزيز الكريم].

الثالث عشر: خطاب الجمع بلفظ الواحد، نحو: [يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم].

الرابع عشر: خطاب الواحد بلفظ الجمع، نحو: [يا أيها الرسل كلوا من الطيبات] إلى قوله [فذرهم في غمرتهم] فهو خطاب له ﷺ وحده، إذا لا نَبِي معه ولا بعده.

وكذا قوله: [وإن عاقبتم فعاقبوا] الآية، خطاب له ﷺ وحده بدليل قوله: [واصبر وما صبرك إلا بالله] الآية.

وكذلك قوله: [فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا] بدليل قوله [قل فأتوا].

الخامس عشر: خطاب الواحد بلفظ الاثنين، نحو: [ألقيا في جهنم] والخطاب لمالك خازن النار، وقيل: لخزنة النار والزبانية فيكون من خطاب الجمع بلفظ الاثنين. وقيل: للملكين الموكلين به في قوله: [وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد].

السادس عشر: خطاب الاثنين بلفظ الواحد، كقوله: [فمن ربكما يا موسى] أي ويا هرون.

ومثله: [فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى] قال ابن عطية: أفرده بالشقاء، لأنه المخاطب أولا والمقصود في الكلام.

السابع عشر: خطاب الاثنين بلفظ الجمع، كقوله: [أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتاً واجعلوا بيوتكم قبلة].

فائدة

قال بعضهم: خطاب القرآن ثلاثة أقسام.

قسم لا يصلح إلا للنبي ﷺ.

وقسم لا يصلح إلا لغيره.

وقسم لهما.

في حقيقته ومجازه

لا خلاف في وقوع الحقائق في القرآن، وهي كل لفظ بقي على موضوعه ولا تقديم فيه ولا تأخير، وهذا أكثر الكلام.

وأما المجاز فالجمهور أيضاً على وقوعه فيه، وأنكره جماعة منهم الظاهرية وابن القاص من الشافعية وابن خويز منداد من المالكية، وشبهتهم أن المجاز أخو الكذب، والقرآن منزه عنه، وأن المتكلم لا يعدل إليه إلا إذا ضاقت به الحقيقة، فيستعير، وذلك محال على الله تعالى. وهذه شبهة باطلة، ولو سقط المجاز من القرآن سقط منه شطر الحسن، فقد اتفق البلغاء على أن المجاز أبلغ من الحقيقة، ولو وجب خلو القرآن من المجاز وجب خلوه من الحذف والتوكيد وتثنية القصص وغيرها.

والمجاز قسمان:

الأول: المجاز في التركيب، ويسمى مجاز الإسناد، والمجاز العقلي وعلاقته الملابسة، وذلك أن يسند الفعل أو شبهه إلى غير ما هو له أصالة لملابسته له، كقوله تعالى: [وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً] نسبت الزيادة وهي فعل الله إلى الآيات، لكونها سبباً لها. [يذبح أبناءهم] [يا هامان ابن لي] نسب الذبح وهو فعل الأعوان إلى فرعون، والبناء وهو فعل العملة إلى هامان لكونهما آمرين به.

وكذا قوله [وأحلوا قومهم دار البوار] نسب الإحلال إليهم لتسبّبهم في كفرهم بأمرهم إياهم به.

ومنه قوله تعالى: [يوماً يجعل الولدان شيبا] نسب الفعل إلى الظرف لوقوعه فيه [عيشة راضية] أي مرضية.

القسم الثاني: المجاز في المفرد، ويسمى المجاز اللغوي، وهو استعمال اللفظ في غير ما وضع له أولا، وأنواعه كثيرة.

أحدها: الحذف نحو (واسأل القرية) اي أهلها.

الثاني: الزيادة نحو «ليس كمثله شيء» اي ليس مثله شيء وفيه نظر

الثالث: إطلاق اسم الكل على الجزء، نحو [يجعلون أصابعهم في آذانهم] أي أناملهم، ونكتة التعبير عنها بالأصابع الإشارة إلى إدخالها على غير المعتاد مبالغة من الفرار فكأنهم جعلوا الأصابع [وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم]، أي وجوههم، لأنه لم ير جلتهم.

الرابع: عكسه، نحو: [ويبقى وجه ربك] أي ذاته، [فولوا وجوهكم شطره]، أي ذواتكم إذ الاستقبال يجب بالصدر [وجوه يومئذ ناعمة] [وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة] عبر بالوجوه عن جميع الأجساد، لأن التنعم والنصب حاصل لكلها، [ذلك بما قدمت يداك] [بما قدمت أيديكم] أي قدمت وكسبت، ونسب ذلك إلى الأيدي لأن أكثر الأعمال تزاول بها.

الخامس: إطلاق اسم الخاص على العام، نحو: [إنا رسول رب العالمين] أي رسله.

السادس: عكسه، نحو: [ويستغفرون لمن في الأرض] أي المؤمنين بدليل قوله: [ويستغفرون للذين آمنوا].

السابع: تسمية الشيء باسم ما كان عليه، نحو: [وآتوا اليتامى أموالهم]، أي الذين كانوا يتامى، إذ لا يُتْم بعد البلوغ، [فلا تعضلوهن

أن ينكحن أزواجهن] أي الذين كانوا أزواجهن، [من يأت ربه مجرماً]، سماه مجرماً باعتبار ما كان في الدنيا من الاجرام.

الثامن: تسميته باسم ما يؤول إليه، نحو: [إني أراني أعصر خمراً] أي عنباً يؤول إلى الخمرية، [ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً] أي صائرا إلى الكفر والفجور. [حتى تنكح زوجاً غيره] سماه زوجاً لأن العقد يؤول إلى زوجية، لأنها لا تنكح إلا في حال كونه زوجاً. [فبشرناه بغلام حليم]، [نبشرك بغلام عليم] وصفه في حال البشارة بما يؤول إليه من العلم والحلم.

التاسع: إطلاق اسم الحال على المحل، نحو: [ففي رحمة الله هم فيها خالدون] أي في الجنة، لأنها محل الرحمة، [بل مكر الليل] أي في الليل [إذ يريكهم الله في منامك] أي في عينك، على قول الحسن.

العاشر: تسمية الشيء باسم آلته، نحو: [واجعل لي لسان صدق في الآخرين] أي ثناء حسناً لأن اللسان آلته، [وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه] أي بلغة قومه.

الحادي عشر: تسمية الشيء باسم ضده، نحو: [فبشرهم بعذاب أليم].

الثاني عشر: إطلاق الفعل والمراد مشارفته ومقاربته وإرادته نحو: [فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن] أي قارين بلوغ الأجل، أي انقضاء العدة، لأن الإمساك لا يكون بعده، وهو في قوله: [فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن] حقيقة [فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون] أي فإذا قرب مجيئه.

[وليخش الذين لو تركوا من خلفهم] الآية، أي لو قاربوا أن يتركوا خافوا لأن الخطاب للأوصياء، وإنما يتوجه إليهم قبل الترك لأنهم بعده أموات، [إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا] أي أردتم القيام، [فإذا قرأت القرآن فاستعذ] أي أردت القراءة، لتكون الاستعاذة قبلها، [وكم من

قرية أهلكناها فجاءها بأسنا] أي أردنا إهلاكها، وإلا لم يصح العطف بالفاء.

الثالث العشر: إقامة صيغة مقام أخرى، وتحته أنواع كثيرة: منها إطلاق فاعل على مفعول، نحو: [ماء دافق] أي مدفوق [لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم] أي لا معصوم، [جعلنا حرما آمنا] أي مأموناً فيه.

وعكسه نحو: [إنه كان وعده مأتيا] أي آتيا [حجاباً مستوراً] أي ساتراً. وقيل: هو على بابه، أي مستوراً عن العيون لا يحس به أحد ومنها إطلاق واحد من المفرد والمثنى والجمع على آخر منها.

مثال إطلاق المفرد على المثنى [والله ورسوله أحق أن يرضوه] أي يرضوهما، فأفرد لتلازم الرضاءين.

وعلى الجمع، نحو [إن الإنسان لفي خسر] أي الأناسيّ بدليل الاستثناء منه، [إن الإنسان خلق هلوعاً] بدليل [إلا المصلين].

ومثال إطلاق المثنى على المفرد [ألقيا في جهنم]، أي ألق.

ومنه كل فعل نسب إلى شيئين وهو لأحدهما فقط، نحو: [يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان]، وانما يخرج من أحدهما وهو الملح دون العذب [وجعل القمر فيهن نوراً] أي في إحداهن[نسيا حوتهما]، والناسي يوشع، بدليل قوله لموسى [فإني نسيت الحوت] وإنما أضيف النسيان إليهما معاً لسكوت موسى عنه [فمن تعجل في يومين] والتعجيل في اليوم الثاني.

ومثال إطلاقه على الجمع: [ثم ارجع البصر كرتين] أي كرات، لأن البصر لا يحسر إلا بها.

ومثال إطلاق الجمع على المفرد [قال رب ارجعون] أي ارجعني ومنها إطلاق الماضي على المستقبل لتحقق وقوعه، نحو: [أتى أمر الله]

أي الساعة، بدليل [فلا تستعجلوه]، [ونفخ في الصور فصعق من في السموات] [وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس].

وعكسه، لإفادة الدوام والاستمرار فكأنه وقع واستمر. نحو: [أتأمرون الناس بالبر وتنسون] [واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان] أي تلت [ولقد نعلم] أي علمنا [قد يعلم ما أنتم عليه] أي علم [فلم تقتلون أنبياء الله] أي قتلتم.

في الحصر والإختصاص

اما الحصر - ويقال له القصر - فهو تخصيص امر بأمر آخر بطريق مخصوص ويقال ايضا: اثبات الحكم للمذكور ونفيه عما عداه.

وينقسم الى قصر الموصوف على الصفة وقصر الصفة على الموصوف. وكل منهما إما حقيقي وإما مجازي.

ومثال قصر الموصوف على الصفة حقيقياً نحو «ما زيد إلا كاتب» اي لا صفة له غيرها، وهو عزيز لا يكاد يوجد لتعذر الاحاطة بصفات الشيء حتى يمكن اثبات شيء منها ونفي ما عداها بالكلية وعلى عدم تعذرها يبعد ان تكون للذات صفة واحدة ليس لها غيرها. ولذا لم يقع في التنزيل.

ومثاله مجازيا نحو «وما محمد إلا رسول»، اي انه مقصور على الرسالة لا يتعداها الى التبري من الموت الذي استعظموه والذي هو من شأن الإله.

ومثال قصر الصفة على الموصوف حقيقيا «لا اله إلا الله».

ومثاله مجازيا: «قل لا أَجد فيما اوحى إليّ محرما على طاعم يطعمه إلا ان يكون ميتة أو دما مسفوحا او لحم خنزير فإنه رجس أو فسقا أهل لغير الله به»، هذه الآية ظاهرها يدل على ان المحرمات محصورة في المذكورات. وهذا الظاهر غير مراد لأن هناك كثيراً من المحرمات غير مذكور في الآية مثل الخمر وغيره من المسكرات ولحم كل ذات ناب - ولذلك قال العلماء ان القصر فيها مجازي وانه مقيد بسبب نزول الآية وقد بين الامام الشافعي هذه المسألة بيانا شافيا وخلاصته:

ان الكفار لما كانوا يحلون الميتة والدم ولحم الخنزير وما اهل لغير

الله به وكانوا يحرمون كثيرا من المباحات وكانت سجيتهم تخالف وضع الشرع نزلت الآية مبينة الحال الذي هم عليه ومقتصرة على ذلك بأسلوب الحصر تأكيدا لرد قولهم وتوضيحا لكذبهم فكأنه قال: لا حرام الا ما احللتموه، والغرض الرد عليهم والمضادة لا الحصر الحقيقي.

وينقسم الحصر باعتبار آخر إلى ثلاثة أقسام: قصر إفراد وقصر قلب وقصر تعيين فالأول يخاطب به من يعتقد الشركة نحو: [إنما إلهكم إله واحد] خوطب به من يعتقد اشتراك الله والأصنام في الألوهية. والثاني يخاطب به من يعتقد إثبات الحكم لغير من اثبته المتكلم له نحو: [ربي الذي يحيي ويميت] خوطب به نمروذ الذي اعتقد أنه المحيي المميت دون الله والثالث يخاطب به من تساوى عنده الأمران.

وطرق الحصر كثيرة:

أحدها: النفي والاستثناء؛ سواء كان النفي بلا أو ما أو غيرهما، والإستثناء بإلا، أو غير، نحو [لا إله إلا الله] [وما من إله إلا الله] [ما قلت لهم إلا ما أمرتني به].

الثاني: انما، الجمهور على أنها للحصر

منها قوله تعالى: [إنما حرّم عليكم الميتة].

ومنها قوله تعالى: [قال إنما العلم عند الله] [قال إنما يأتيكم به الله].

الثالث: أنما، بالفتح، عدها من طرق الحصر الزمخشري والبيضاوي، فقالا في قوله تعالى: [قل إنما يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد] هي للحصر.

الرابع: تقديم المعمول، نحو [إياك نعبد] أي لا غيرك [لإلى الله تحشرون]. وخالف فيه قوم.

الخامس: ضمير الفصل نحو [فالله هو الولي] اي لا غيره [وأولئك هم المفلحون] [إن هذا لهو القصص الحق].

ما جاء في القرآن من الإيجاز والاطناب

اعلم انها من اعظم انواع البلاغة حتى نقل صاحب «سر الفصاحة» عن بعضهم انه قال: البلاغة هي الإيجاز والاطناب.
واختلفت ألفاظ العلماء في تعريف الإيجاز والاطناب.

فقال بعضهم الايجاز هو اداء المقصود بأقل من العبارة المتعارف عليها. والاطناب اداؤه بأكثر منها لكون المكان خليقا بالبسط وقال بعضهم الإيجاز التعبير عن المراد بلفظ ناقص واف لفائدة، والاطناب بلفظ زائد لفائدة. وهو اخص من الإسهاب، فان الاسهاب التطويل لفائدة او لا لفائدة.

«أنواع الإيجاز»

والإيجاز قسمان الأول إيجازالقصر وهو الوجيز لفظه كقوله تعالى: [انه من سليمان - إلى - وأتوني مسلمين] جمع في أحرف العنوان والكتابة والحاجة. ومنه ما يسمى:

الايجاز الجامع، وهو أن يحتوي اللفظ على معان متعددة نحو [إن الله يأمر بالعدل والإحسان] الآية، فان العدل هو الصراط المستقيم المتوسط بين طرفي الإفراط والتفريط المومى به إلى جميع الواجبات في الإعتقاد والأخلاق والعبودية. والإحسان هو الإخلاص في واجبات العبودية لتفسيره في الحديث بقوله: أن تعبد الله كأنك تراه، اي تعبده مخلصا في نيتك، وواقفا في الخضوع آخذا أهبة الحذر إلى ما لا يحصى [وإيتاء ذي القربى] هو الزيادة على الواجب من النوافل، هذا في الأوامر. وأما النواهي: في قوله وينهى عن الفحشاء والمنكر. فبالفحشاء الإشارة إلى القوة الشهوانية وبالمنكر إلى الإفراط الحاصل من آثار الغضبية وكل محرَّم شرعا، وبالبغي إلى الاستعلاء الفائض عن

الوهمية ولهذا قال ابن مسعود: ما في القرآن آية أجمع للخير والشر من هذه الآية. أخرجه في المستدرك.

ومن ذلك قوله تعالى: [ولكم في القصاص حياة] فإن معناه كثير ولفظه قليل، لأن معناه أن الإنسان إذا علم أنه متى قتل قتل كان ذلك داعيا إلى ألاّ يقدم على القتل، فارتفع بالقتل الذي هو القصاص كثير من قتل الناس بعضهم لبعض، وكان ارتفاع القتل حياة لهم. وقد فضلت هذه الجملة على أوجز ما كان عند العرب في هذا المعنى، وهو قولهم [القتل أنفى للقتل] بعشرين وجها أو أكثر، وقد اشار ابن الأثير إلى إنكار هذا التفضيل وقال: لا تشبيه بين كلام الخالق وكلام المخلوق، وإنما العلماء يقدحون أذهانهم فيما يظهر لهم من ذلك.

الأول: أن ما يناظره من كلامهم، وهو قوله: «القصاص حياة» أقل حروفا، فإن حروفه عشرة، وحروف «القتل أنفى للقتل» أربعة عشر.

الثاني: أن نفي القتل لا يستلزم الحياة، والآية ناصة على ثبوتها التي هي الغرض المطلوب منه.

الثالث: أن تنكير «حياة» يفيد تعظيما، فيدل على أن في القصاص حياة متطاولة، كقوله تعالى: [ولتجدنهم أحرص الناس على حياة]، ولا كذلك المثَل، فإن اللام فيه للجنس ولذا فسروا الحياة فيها بالبقاء.

الرابع: أن الآية خالية من تكرار لفظ «القتل» الواقع في المثل، والخالي من التكرار أفضل من المشتمل عليه، وإن لم يكن مخلا بالفصاحة.

الخامس: أن الآية فيه مطردة بخلاف المثل، فإنه ليس كل قتل أنفى للقتل، بل قد يكون أدعى له، وهو القتل ظلما، وإنما ينفيه قتل خاص وهو القصاص، ففيه حياة أبدا.

والقسم الثاني إيجاز الحذف وأسبابه:

منها: مجرد الإختصار والاحتراز عن العَبث لظهوره.

ومنها: التنبيه على أن الزمان يتقاصر عن الإتيان بالمحذوف، وأن الاشتغال بذكره يفضي إلى تفويت المهم، وهذه هي فائدة باب التحذير والاغراء، وقد اجتمعا في قوله تعالى: [ناقة الله وسقياها] فناقة الله تحذير بتقدير «ذروا» و«سقياها» إغراء بتقدير «الزموا».

ومنها: التفخيم والاعظام لما فيه من الابهام، ومنه قوله في وصف أهل الجنة: [حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها] فحذف الجواب إذ كان وصف ما يجدونه ويلقونه عند ذلك لا يتناهى، فجعل الحذف دليلا على ضيق الكلام عن وصف ما يشاهدونه، وتركت النفوس تقدر ما شاءته، ولا تبلغ مع ذلك كنه ما هنالك.

وكذا قوله: [ولو ترى إذ وقفوا على النار] أي لرأيت أمرا فظيعا لا تكاد تحيط به العبارة.

ومنها: التخفيف لكثرة دورانه في الكلام، كما في حذف حرف النداء، نحو: [يوسف أعرض].

ومنها: صيانته عن ذكره تشريفا كقوله تعالى: [قال فرعون وما رب العالمين، قال رب السموات] الآيات، حذف فيها المبتدأ في ثلاثة مواضع:

قبل ذكر الرب أي «هو رب» «الله ربكم» «الله رب المشرق» لأن موسى استعظم حال فرعون واقدامه على السؤال، فأضمر الاسم تعظيما وتفخيما.

ومنها: صيانة اللسان عنه تحقيرا له، نحو: [صم بكم] أي هم أو المنافقون.

ومنها: قصد العموم، نحو: [وإياك نستعين] أي على العبادة وعلى أمورنا كلها [والله يدعو إلى دار السلام] أي كل واحد.

ومنها رعاية الفاصلة، نحو: [ما ودعك ربك وما قلى] أي «وما قلاك».

ومنها: قصد البيان بعد الابهام، كما في فعل المشيئة، نحو: [ولو شاء لهداكم] أي ولو شاء هدايتكم.

وأما الاطناب فانه يكون بأمور:

منها الايضاح بعد الابهام نحو «رب اشرح لي صدري» فان «اشرح لي» يفيد طلب شرح شيء ما له وصدري يفسره والمقام يقتضي التأكيد للارسال المؤذن بتلقي الشدائد وكذا «الم نشرح لك صدرك» فان المقام يقتضي التأكيد لأنه مقام امتنان وتفخيم.

ومنها: عطف الخاص بعد العام، وفائدته التنبيه على فضله حتى كأنه ليس من جنس العام تنزيلا للتغاير في الوصف منزلة التغاير في الذات. ومن أمثلته «حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى». «من كان عدو الله وملائكته ورسله وجبريل. وميكال».

ومنها عطف العام على الخاص، وأنكر بعضهم وجوده فأخطأ. والفائدة فيه واضحة وهو التعميم وافرد الاول بالذكر اهتماما بشأنه ومن امثلته: «إن صلاتي ونسكي»، والنسك عبادة فهو أعم. «آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم».

في تشبيهه واستعارته

التشبيه نوع من أشرف أنواع البلاغة وأعلاها.

قال المبرد في الكامل: لو قال قائل: هو اكثر كلام العرب لم يبعد

وقد افرد تشبيهات القرآن بالتصنيف ابو القاسم بن البندار البغدادي، في كتاب سماه «الجمان».

وعرفه جماعة ومنهم السكاكي، بانه الدلالة على مشاركة امر لأمر في معنى.

وأدواته حروف واسماء وافعال: فالحروف: كالكاف نحو [كرماد] من قوله تعالى: (مثل الذين كفروا بربهم اعمالهم كرماد اشتدت به الريح). وكأنه نحو [كأنه رؤوس الشياطين].

والاسماء كمثل وشبه ونحوها مما يشتق من المماثلة والمشابهة قال الطيبي: ولا يستعمل «مثل» الا في حال او صفة لها شأن وفيها غرابة. نحو قوله سبحانه وتعالى: [مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر].

ونحو قوله تعالى: [إنما مثل الحياة الدنيا كماء انزلناه من السماء].

الى قوله: [لم تغن بالأمس] فإن فيه عشر جمل وقع التركيب من مجموعها بحيث لو سقط منها شيء اختل التشبيه اذ المقصود تشبيه حال الدنيا في سرعة تقضيها وانقراض نعيمها واغترار الناس بها بحال ماء نزل من السماء وانبت انواع العشب وزين بزخرفها وجه الأرض كالعروس اذا اخذت الثياب الفاخرة حتى اذا طمع اهلها فيها وظنوا انها مسلمة من الحوائج اتاها بأس الله فجأة فكأنها لم تكن بالأمس.

الاستعارة القرآنية:

الاستعارة هي اللفظ المستعمل فيما شبه بمعناه الاصلي.

وقال بعضهم: حقيقة الاستعارة ان تستعار الكلمة من شيء معروف بها الى شيء لم يعرف بها. وحكمة ذلك اظهار الخفي وايضاح الظاهر الذي ليس بجلي، او حصول المبالغة او المجموع.

مثال اظهار الخفي قوله تعالى: [وانه في ام الكتاب] فإن حقيقته: وانه في اصل الكتاب، فاستعير لفظ الأم للأصل لأن الاولاد تنشأ من الام كانشاء الفروع من الاصول، وحكمة ذلك تمثيل ما ليس بمرئي حتى يصير مرئيا، فينتقل السامع من حد السماع الى حد العيان، وذلك ابلغ في البيان.

ومثال ايضاح ما ليس بجلي ليصير جليا قوله تعالى: [واخفض لهما جناح الذل] فان المراد امر الولد بالذل لوالديه رحمة، فاستعير للذل أوّلاً جانب ثم للجانب جناح، وتقدير الاستعارة القريبة: واخفض لهما جانب الذل: أي اخفض جانبك ذلا، وحكمة الاستعارة في هذا جعل ما ليس بمرئي مرئيا لأجل حسن البيان ولما كان المراد خفض جانب الولد للوالدين بحيث لا يبقى الولد من الذل لهماوالاستكانة ممكنا احتيج في الاستعارة إلى ما هو ابلغ من الاولى فاستعير لفظ الجناح لما فيه من المعاني التي لا تحصل من خفض الجانب لأن من يميل جانبه إلى جهة السفل أدنى ميل صدق عليه انه خفض جانبه، والمراد خفض بلصق الجنب بالأرض، ولا يحصل ذلك إلا بذكر الجناح كالطائر.

ومثال المبالغة قوله تعالى: [وفجرنا الأرض عيونا] وحقيقته: وفجرنا عيون الأرض، ولو عبر بذلك لم يكن فيه من المبالغة ما في الاول المشعر بأن الأرض كلها صارت عيونا.

في كنايته وتعريضه

هما من أنواع البلاغة واساليب الفصاحة، والكناية ابلغ من التصريح، وعرفها اهل البيان بأنها لفظ اريد به لازم معناه وللكناية اساليب.

احدها: التنبيه على عظم القدرة نحو قوله تعالى: [هو الذي خلقكم

من نفس واحدة] كناية عن آدم.

ثانيها: ان يكون التصريح مما يستقبح ذكره. ككناية الله عن الجماع بالملامسة والمباشرة والافضاء والرفث والدخول والسر في قوله تعالى: [ولكن لا تواعدوهن سرا].

ثالثها: قصد البلاغة والمبالغة نحو قوله تعالى: [او من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين] كني عن النساء بأنهن ينشأن في الترفه والتزين الشاغل عن النظر في الأمور ودقيق المعاني، ولو أتى بلفظ «النساء» لم يشعر بذلك، والمراد نفي ذلك عن الملائكة، وقوله تعالى: [بل يداه مبسوطتان] كناية عن سعة جوده وكرمه جدا.

رابعها: قصد الاختصار، كالكناية عن ألفاظ متعددة بلفظ «فعل» نحو قوله تعالى: [لبئس ما كانوا يفعلون] [فان لم تفعلوا ولن تفعلوا] اي فان لم تأتوا بسورة من مثله.

خامسها: التنبيه على مصيره نحو قوله تعالى: [تبت يدا ابي لهب] اي جهنمي مصيره الى اللهب، ونحو قوله تعالى: [حمالة الحطب، في جيدها حبل] اي نمّامة مصيرها الى ان تكون حطبا لجهنم، في جيدها غل.

التعريض:

اما التعريض فهو قريب من الكناية والفرق بينهما دقيق. قال الحافظ السيوطي: وللناس في الفرق بين الكناية والتعريض عبارات متقاربة. فقال الزمخشري: الكناية ذكر الشيء بغير لفظه الموضوع له والتعريض ان تذكر شيئا يدل به على شيء لم تذكره، وقال السكاكي: التعريض ما سيق لأجل موصوف غير مذكور. ومنه ان يخاطب واحد ويراد غيره. ومنه قوله تعالى: [ورفع بعضهم درجات] اي محمدا ﷺ اعلاء لقدره: اي انه العلم الذي لا يشتبه. ومنه قوله تعالى: [وما لي لا

اعبد الذي فطرني] اي وما لكم لا تعبدون بدليل قوله تعالى: واليه ترجعون. وكذا قوله تعالى: [أأتخذ من دونه آلهة] ووجه حسنه اسماع من يقصد خطابه الحق على وجه يمنع غضبه اذ لم يصرح بنسبته للباطل والاعانة على قبوله، اذ لم يرد له الا ما اراده لنفسه، ومنه قوله تعالى: [لئن اشركت ليحبطن عملك] خوطب النبي ﷺ، واريد غيره لاستحالة الشرك عليه شرعا.

في الخبر والإنشاء

إعلم أن الحذاق من النحاة وغيرهم وأهل البيان قاطبة على انحصار الكلام فيهما، وأنه ليس له قسم ثالث.

والخبر هو الذي يدخله الصدق والكذب والانشاء بخلافه. والقصد بالخبر إفادة المخاطب، وقد يرد بمعنى الأمر، نحو: [والوالدات يرضعن] [والمطلقات يتربصن]. وبمعنى النهي نحو: [لا يمسه إلا المطهرون]، وبمعنى الدعاء نحو: [وإياك نستعين] أي أعنّا، ومنه [تبت يدا أبي لهب وتب] فإنه دعاء عليه وكذا: [غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا] وجعل منه قوم: [حصرت صدرورهم] قالوا: هو دعاء عليهم بضيق صدورهم عن قتال أحد.

فصل

من أقسام الإنشاء: الاستفهام وهو طلب الفهم وهو بمعنى الاستخبار وأدواته: الهمزة، وهل، وما، ومن، وأيّ، وكم، وكيف وأين، وأنّي، ومتى، وأيان.

ويرد الاستفهام لمعان متعددة:

الأول: الإنكار، والمعنى فيه على النفي، وما بعده منفي، ولذلك

تصحبه «إلا» كقوله: [فهل يهلك إلا القوم الفاسقون] [وهل نجازي إلا الكفور] وعطف عليه المنفي في قوله: [فمن يهدي من أضل الله ومالهم من ناصرين] أي لا يهدي، ومنه: [أنؤمن لك واتبعك الأرذلون]، [أنؤمن لبشرين مثلنا] أي لا نؤمن، [أم له البنات ولكم البنون]، [ألكم الذكر وله الأنثى] أي لا يكون هذا، [أشهدوا خلقهم] أي ما شهدوا ذلك. وكثيراً ما يصحبه التكذيب وهو في الماضي بمعنى «لم يكن» وفي المستقبل بمعنى «لا يكون» نحو [أفأصفاكم ربكم بالبنين...] الآية، أي لم يفعل ذلك. [أنلزمكموها وأنتم لها كارهون] أي لا يكون هذا الالزام.

الثاني: التوبيخ، ويعبر عن ذلك بالتقريع أيضاً، نحو: [أفعصيت أمري]، [أتعبدون ما تنحتون]، [أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين].

وأكثر ما يقع التوبيخ في أمر ثابت ووبخ على فعله كما ذكر، ويقع على ترك فعل كان ينبغي أن يقع، كقوله: [أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر]، [ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها].

والثالث: التقرير وهو حمل المخاطب على الإقرار والاعتراف بأمر قد استقر عنده.

والكلام مع التقرير موجب، ولذلك يعطف عليه صريح الموجب ويعطف على صريح الموجب، فالأول كقوله تعالى: [ألم نشرح لك صدرك، ووضعنا عنك وزرك]، [ألم يجدك يتيماً فآوى، ووجدك] [ألم يجعل كيدهم في تضليل، وأرسل].

والثاني: نحو [أكذبتم بآياتي ولم تحيطوا بها علماً] على ما قرره الجرجاني من جعلها مثل [وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوا].

وحقيقة استفهام التقرير، أنه استفهام إنكار، والإنكار نفي، وقد دخل على النفي، ونفي النفي إثبات، ومن أمثلته: [أليس الله بكاف عبده] [ألست بربكم] وجعل منه الزمخشري [ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير].

الرابع: التعجب أو التعجيب، نحو: [كيف تكفرون بالله] [مالي لا أرى الهدهد].

وقد اجتمع هذا القسم وسابقاه في قوله: [أتأمرون الناس بالبر]. قال الزمخشري: الهمزة للتقرير مع التوبيخ والتعجب من حالهم. ويحتمل التعجب والاستفهام الحقيقي: [ما ولاهم عن قبلتهم].

الخامس: العتاب، كقوله: [ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله].

ومن ألطفه ما عاتب الله به خير خلقه بقوله: [عفا الله عنك لم أذنت لهم].

السادس: التذكير، وفيه نوع اختصار، كقوله: [ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان]، [ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض]، [هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه].

السابع: الافتخار، نحو: [أليس لي ملك مصر].

الثامن: التفخيم، نحو: [مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة].

التاسع: التهويل والتخويف، نحو: [الحاقة، ما الحاقة] [القارعة، ما القارعة].

العاشر: عكسه، وهو التسهيل والتخفيف، نحو: [وماذا عليهم لو آمنوا].

الحادي عشر: التهديد والوعيد، نحو: [ألم نهلك الأولين].

الثاني عشر: التسوية، وهو الاستفهام الداخل على جملة يصح حلول المصدر محلها نحو: [سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم].

الثالث عشر: الأمر، نحو: [أأسلمتم] أي أسلموا [فهل أنتم منتهون] أي انتهوا، [أتصبرون] أي إصبروا.

الرابع عشر: التنبيه، وهو من أقسام الأمر، نحو: [ألم تر إلى ربك كيف مد الظل] أي أنظر.

الخامس عشر: الترغيب، نحو: [من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً] [هل أدلكم على تجارة تنجيكم].

السادس عشر: النهي، نحو: [أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه]، بدليل: [فلا تخشوا الناس واخشون] [ما غرك بربك الكريم] أي لا تغتر.

السابع عشر: الدعاء، وهو كالنهي، إلا أنه من الأدنى إلى الأعلى نحو: [أتهلكنا بما فعل السفهاء] أي لا تهلكنا.

الثامن عشر: الاسترشاد، نحو: [أتجعل فيها من يفسد فيها]. إلى غير ذلك من المعاني.

فصل

من أقسام الإنشاء الأمر

وهو طلب فعل غير كف أى ترك، وصيغته «افعل» و«ليفعل» وهي حقيقة في الايجاب، نحو: [أقيموا الصلاة]، [فليصلوا معك].

وترد مجازا لمعان أخر:

منها الندب، نحو: [وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا] والإباحة، نحو: [فكاتبوهم] نص الشافعي على أن الأمر فيه للإباحة

ومنه: [وإذا حللتم فاصطادوا].

والدعاءُ من السافل للعالي، نحو: [رب اغفر لي].

والتهديد، نحو: [اعملوا ما شئتم] إذ ليس المراد الأمر بكل عمل شاءوا.

والإهانة، نحو: [ذق إنك أنت العزيز الكريم].

والتسخير، أي التذليل، نحو: [كونوا قردة] عبر به عن نقلهم من حالة إلى حالة إذلالاً لهم، فهو أخص من الإهانة.

والتعجيز، نحو: [فأتوا بسورة من مثله]، إذ ليس المراد طلب ذلك منهم، بل إظهار عجزهم.

والإمتنان، نحو: [كلوا من ثمره إذا أثمر].

والعجب، نحو: [أنظر كيف ضربوا لك الأمثال].

والتسوية، نحو: [فاصبروا أو لا تصبروا].

والإرشاد، نحو: [وأشهدوا إذا تبايعتم].

والاحتقار، نحو: [ألقوا ما أنتم ملقون].

والإنذار، نحو: [قل تمتعوا].

والإكرام، نحو: [أدخلوها بسلام].

والانعام، أي تذكير النعمة، نحو: [كلوا مما رزقكم الله]

والتكذيب، نحو: [قل فأتوا بالتوراة فاتلوها]، [قل هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا].

والمشورة، نحو: [فانظر ماذا ترى].

والاعتبار، نحو: [انظروا إلى ثمره إذا أثمر].

فصل

ومن أقسامه النهي

وهو طلب الكف عن فعل، وصيغته: «لا تفعل» وهي حقيقة في التحريم.

وترد مجازاً لمعان:

منها الكراهة، نحو: [ولا تمش في الارض مرحاً].

والدعاء، نحو: [ربنا لا تزغ قلوبنا].

والإرشاد، نحو: [لا تسألوا عن أشياء إن تبدلكم تسؤكم].

والتسوية، نحو: [أولا تصبروا].

والاحتقار والتقليل، نحو: [لا تمدن عينيك...] الآية، أي فهو قليل حقير.

وبيان العاقبة، نحو: [ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء] أي عاقبة الجهاد الحياة، لا الموت.

واليأس، نحو: [لا تعتذروا].

والإهانة، نحو: [اخسئوا فيها ولا تكلمون].

في فواتح السور

إعلم أن الله افتتح سور القرآن بعشرة أنواع من الكلام لا يخرج شيء من السور عنها.

الأول: الثناء عليه تعالى: التحميد في خمس سور وتبارك في سورتين والتسبيح في سبع سور.

الثاني: حروف التهجي في تسع وعشرين سورة.

الثالث: النداءُ في عشر سور: خمس بنداء الرسول ﷺ: الأحزاب، الطلاق، التحريم، المزمل، المدثر، وخمس بنداء الأمة: النساء والمائدة، والحج، والحجرات، والممتحنة.

الرابع: الجمل الخبرية، نحو: [يسألونك عن الأنفال]، [براءة من الله]، [أتى أمر الله]، [اقترب للناس حسابهم]، [قد أفلح المؤمنون]، [سورة أنزلناها]، [تنزيل الكتاب]، [الذين كفروا]، [إنا فتحنا]، [اقتربت الساعة]، [الرحمن علم]، [لقد سمع الله]، [الحاقة]، [سأل سائل]، [إنا أرسلنا نوحاً]، [لا أقسم] في موضعين، [عبس]، [إنا أنزلناه]، [لم يكن]، [القارعة]، [ألهاكم]، [إنا أعطيناك] فتلك ثلاث وعشرون سورة.

الخامس: القسم في خمس عشرة سورة، سورة أقسم فيها بالملائكة وهي: والصافات، وسورتان بالأفلاك: البروج، والطارق، وست سور بلوازمها، فالنجم قسم بالثريا، والفجر بمبدإ النهار والشمس بآية النهار والليل بشطر الزمان، والضحى بشطر النهار، والعصر بالشطر الآخر، أو بجملة الزمان، وسورتان بالهواء الذي هو أحد العناصر: والذاريات والمرسلات، وسورة بالتربة التي هي منها أيضاً وهي: الطور، وسورة بالنبات وهي: والتين، وسورة بالحيوان الناطق وهي: والنازعات، وسورة بالبهيم وهي: والعاديات.

قلت: إن قلنا بأن لا في القيامة والبلد صلة فهما قسم بيوم القيامة والنفس اللوامة ومكة ووالد وما ولد.

السادس: الشرط في سبع سور: الواقعة، والمنافقون، والتكوير والإنفطار، والانشقاق، والزلزلة، والنصر.

السابع: الأمر في ست سور: قل أوحى، إقرأ، قل يا أيها الكافرون، قل هو الله أحد، قل أعوذ «المعوذتين».

الثامن: الاستفهام في ست سور: هل أتى،عم يتساءلون، هل أتاك،ألم نشرح، ألم تر، أرأيت.

التاسع: الدعاء في ثلاث: ويل للمطففين، ويل لكل همزة، تبت،.

العاشر: التعليل في لإيلف قريش.

في خواتم السور

وهي أيضاً مثل الفواتح في الحسن، لأنها آخر ما يقرع الأسماع، فلهذا جاءت متضمنة للمعانيالبديعية، مع إيذان السامع بانتهاء الكلام، حتى لا يبقى معه للنفوس تشوف إلى ما يذكر بعد، لأنها بين أدعية ووصايا وفرائض، وتحميد وتهليل، ومواعظ، ووعد، ووعيد، إلى غير ذلك، كتفصيل جملة المطلوب في خاتمة الفاتحة إذ المطلوب الأعلى الإيمان المحفوظ من المعاصي المسببة لغضب الله والضلال ففصل جملة ذلك بقوله: [الذين أنعمت عليهم].

وكالدعاء الذي اشتملت عليه الآيتان من آخر سورة البقرة وكالوصايا التي ختمت بها سورة آل عمران.

والفرائض التي ختمت بها سورة النساء، وحسن الختم بها لما فيها من أحكام الموت الذي هو آخر أمر كل حي، ولأنها آخر ما أنزل من الأحكام.

وكالتبجيل والتعظيم الذي ختمت به المائدة.

وكالوعد والوعيد الذي ختمت به الأنعام.

وكالتحريض على العبادة بوصف حال الملائكة الذي ختمت به الأعراف.

وكالحض على الجهاد وصلة الأرحام الذي ختمت به الانفال وكوصف الرسول ومدحه والتهليل الذي ختمت به براءة، وتسليته

عليه - الصلاة والسلام الذي ختمت به يونس، ومثلها خاتمة هود.

ووصف القرآن ومدحه الذي ختم به يوسف.

والرد على من كذب الرسول الذي ختم به الرعد.

ومن أوضح ما آذن بالختام خاتمة إبراهيم: [هذا بلاغ للناس] الآية، ومثلها خاتمة الأحقاف، وكذا خاتمة الحجر بقوله: [واعبد ربك حتى يأتيك اليقين]، وهومفسر بالموت، فإنها في غاية البراعة وانظر إلى سورة الزلزلة كيف بدئت بأهوال القيامة، وختمت بقوله: [فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره].

وانظر براعة آخر آية نزلت، وهي قوله: [واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله] وما فيها من الإشعار بالاخرية المستلزمة بالوفاة.

وكذلك آخر سورة نزلت وهي سورة النصر فيها الإشعار بالوفاة، كما أخرج البخاري من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس، أن عمر سألهم عن قوله: [إذا جاء نصر الله والفتح] فقالوا: فتح المدائن والقصور، قال: ما تقول يا ابن عباس؟ قال: أجل ضرب لمحمد نعيت له نفسه.

وأخرج أيضاً عنه قال: كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وجد في نفسه، فقال: لم يدخل هذا معنا، ولنا أبناء مثله فقال عمر: إنه من قد علمتم، ثم دعاهم ذات يوم فقال: ما تقولون في قول الله: [إذا جاء نصر الله والفتح]؟ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره، إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً، فقال لي: أكذلك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا، قال: فما تقول قلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه به، قال: [إذا جاء نصر الله والفتح]، وذلك علامة أجلك، [فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً] فقال عمر: إني لا أعلم منها إلا ما تقول.

في مناسبة الآيات والسور

المناسبة في اللغة المشاكلة والمقاربة، ومرجعها في الآيات ونحوها إلى معنى رابط بينها عام أو خاص، عقلي أو حسي أو خيالي أو غير ذلك من أنواع العلاقات أو التلازم الذهني، كالسبب والمسبب، والعلة والمعلول، والنظيرين والضدين، ونحوه.

وفائدته جعل أجزاء الكلام بعضها آخذا بأعناق بعض فيقوى بذلك الارتباط، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء.

وقد أفرده بالتأليف العلامة أبو جعفر بن الزبير شيخ أبي حيان في كتاب سماه «البرهان في مناسبة ترتيب سور القرآن» والشيخ برهان الدين البقاعي في كتاب سماه «نظم الدرر في تناسب الآي والسور» وللسيوطي جزء لطيف سماه «تناسق الدرر في تناسب السور».

وعلم المناسبة علم شريف، قل اعتناء المفسرين به لدقته وممن أكثر فيه الإمام فخر الدين، وقال في تفسيره: أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط.

وقال الشيخ عز الدين بن عبد السلام: المناسبة علم حسن لكن يشترط في حسن ارتباط الكلام أن يقع في أمر متحد مرتبط أوله بآخره، فإن وقع على أسباب مختلفة لم يقع فيه ارتباط، ومن ربط ذلك فهو متكلف بما لا يقدر عليه إلا بربط ركيك يصان عن مثله حسن الحديث، فضلا عن أحسنه، فإن القرآن نزل في نيف وعشرين سنة، في أحكام مختلفة، شرعت لأسباب مختلفة، وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه ببعض.

تنبيه

من الآيات ما أشكلت مناسبتها لما قبلها، من ذلك قوله تعالى: في

سورة القيامة: [لا تحرك به لسانك لتعجل به] الآيات، فإن وجه مناسبتها لأول السورة وآخرها عسر جداً، فإن السورة كلها في أحوال القيامة، حتى زعم بعض الرافضة أنه سقط من السورة شيء. وفي الصحيح أنها نزلت في تحريك النبي ﷺ لسانه حالة نزول الوحي عليه.

وقد ذكر الأئمة لها مناسبات:

منها: أنه تعالى لما ذكر القيامة، وكان من شأن من يقصّر عن العمل لها حب العاجلة، وكان من أصل الدين أن المبادرة إلى أفعال الخير مطلوبة، فنبه على أنه قد يتعرض على هذا المطلوب ما هو أجل منه، وهو الإصغاء إلى الوحي، وتفهم ما يرد منه، والتشاغل بالحفظ قد يصد عن ذلك. فأمر بألا يبادر إلى التحفظ، لأن تحفيظه مضمون على ربه، وليصغ إلى ما يرد عليه إلى أن ينقضي فيتبع ما اشتمل عليه. ثم لما انقضت الجملة المعترضة رجع الكلام إلى ما يتعلق بالإنسان المبتدأ بذكره ومن هو من جنسه، فقال: [كلا] وهي كلمة ردع كأنه قال: «بل أنتم يا بني آدم لكونكم خلقتم من عجل تعجلون في كل شيء ومن ثم تحبون العاجلة».

ومنها: أن «النفس» لما تقدم ذكرها في أول السورة عدل إلى ذكر «نفس» المصطفى، كأنه قيل هذا شأن النفوس، وأنت يا محمد نفسك أشرف النفوس فلتأخذ بأكمل الأحوال.

ومن ذلك قوله تعالى: [يسألونك عن الأهلة] الآية، فقد يقال: أي رابط بين أحكام الأهلة وبين حكم إتيان البيوت؟.

وأجيب: بأنه من باب الاستطراد، لما ذكر أنها مواقيت للحج وكان هذا من أفعالهم في الحج. كما ثبت في سبب نزولها - ذكر معه من باب الزيادة في الجواب على ما في السؤال، كما سئل عن ماء البحر فقال: «هو الطهور ماؤه الحل ميتته».

ومن ذلك قوله تعالى: [ولله المشرق والمغرب] الآية، فقد يقال ما هو وجه اتصاله بما قبله وهو قوله: [ومن أظلم ممن منع مساجد الله] الآية؟

وقال الشيخ أبو محمد الجويني في تفسيره: سمعت أبا الحسن الدهان يقول: وجه اتصاله، هو أن ذكر تخرب بيت المقدس قد سبق أي فلا يجرمنكم ذلك، واستقبلوه فإن لله المشرق والمغرب.

في إعجاز القرآن

إعلم أن المعجزة أمر خارق للعادة، مقرون بالتحدي، سالم عن المعارضة، وهي إما حسية وإما عقلية، وأكثر معجزات بني إسرائيل كانت حسية لبلادتهم وقلة بصيرتهم. وأكثر معجزات هذه الأمة عقلية لفرط ذكائهم، وكمال أفهامهم، ولأن هذه الشريعة لما كانت باقية على صفحات الدهر إلى يوم القيامة، خصت بالمعجزة العقلية الباقية ليراها ذوو البصائر كما قال ﷺ: «ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي اوتيته وحياً أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً» أخرجه البخاري.

قيل: إن معناه أن معجزات الأنبياء انقرضت بانقراض أعصارهم فلم يشاهدها إلا من حضرها، ومعجزة القرآن مستمرة إلى يوم القيامة وخرقه العادة في أسلوبه وبلاغته وإخباره بالمغيبات فلا يمرّ عصر من الأعصار إلا ويظهر فيه شيء مما أخبر به أنه سيكون، يدل على صحة دعواه.

وقيل: المعنى أن المعجزات الواضحة الماضية كانت حسية تشاهد بالأبصار كناقة صالح وعصى موسى، ومعجزة القرآن تشاهد بالبصيرة فيكون من يتبعه لأجلها أكثر، لأن الذي يشاهد بعين الرأس ينقرض بانقراض مشاهده، والذي يشاهد بعين العقل باق، يشاهده كل من جاء

بعد الأول مستمراً.

ولا خلاف بين العقلاء، أن كتاب الله تعالى معجز لم يقدر أحد على معارضته بعد تحديهم بذلك.

ولما جاء به النبي ﷺ إليهم، وكانوا أفصح الفصحاء ومصاقع الخطباء، وتحداهم على أن يأتوا بمثله، وأمهلهم طول السنين فلم يقدروا، كما قال تعالى: [فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين] ثم تحداهم بعشر سور منه في قوله تعالى: [أم يقولون افتراه، قل فاتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين، فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا إنما أنزل بعلم الله]، ثم تحداهم بسورة في قوله: [أم يقولون افتراه، قل فاتوا بسورة مثله] الآية، ثم كرّر تحديهم في قوله: [وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله] الآية، فلما عجزوا عن معارضته والاتيان بسورة تشبهه على كثرة الخطباء فيهم والبلغاء، نادى عليهم باظهار العجز وإعجاز القرآن، فقال: [قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا]، هذا وهم الفصحاء اللد، وقد كانوا أحرص شيء على إطفاء نوره، وإخفاء أمره، فلو كان في مقدرتهم معارضته لعدلوا إليها قطعاً للحجة. ولم ينقل عن أحد منهم أنه حدّث نفسه بشيء من ذلك ولا رامه، بل عدلوا إلى العناد تارة، وإلى الاستهزاء أخرى، فتارة قالوا: «سحر» وتارة قالوا: «شعر» وتارة قالوا: «أساطير الأولين» كل ذلك من التحير والإنقطاع.

يقول الوليد بن المغيرة عن القرآن لما سمعه وطلب منه قومه أن يقول في شأن القرآن كلمة ترضيهم: وماذا أقول! فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني، ولا برجزه ولا بقصيده، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، ووالله إن لقوله الذي يقول حلاوة،

وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه، وإنه ليحطم ما تحته.

فصل

وجه إعجازه

قال الإمام فخر الدين: وجه الإعجاز الفصاحة، وغرابة الأُسلوب والسلامة من جميع العيوب.

قال الزملكاني: وجه الإعجاز راجع إلى التأليف الخاص به، لا مطلق التأليف بأن اعتدلت مفرداته تركيبا وزنة وعلت مركباته معنى .

وقال ابن عطية: الصحيح والذي عليه الجمهور والحذاق في وجه إعجازه، أنه بنظمه وصحة معانيه، وتوالي فصاحة ألفاظه، وذلك أن الله أحاط بكل شيء علماً، وأحاط بالكلام كله علماً، فإذا رتب اللفظة من القرآن، علم بإحاطته أي لفظة تصلح أن تلي الاولى، وتبين المعنى بعد المعنى، ثم كذلك من أول القرآن إلى آخره، والبشر يعمهم الجهل والنسيان والذهول، ومعلوم ضرورة أن أحداً من البشر لا يحيط بذلك، فبهذا جاء نظم القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة وبهذا يبطل قول من قال: إن العرب كان في قدرتها الإتيان بمثله فصرفوا عن ذلك، والصحيح أنه لم يكن في قدرة أحد قط، ولهذا ترى البليغ ينقح القصيدة أو الخطبة حولا، ثم ينظر فيها فيغير فيها وهلم جرا. وكتاب الله تعالى لو نزعت منه لفظة، ثم أدير لسان العرب على لفظة أحسن منها لم يوجد ونحن تتبين لنا البراعة في أكثره ويخفى علينا وجهها في مواضع لقصورنا عن مرتبة العرب يومئذ في سلامة الذوق، وجودة القريحة، وقامت الحجة على العالم بالعرب، إذ كانوا أرباب الفصاحة، ومظنة المعارضة، كما قامت الحجة في معجزة موسى بالسحرة، وفي معجزة عيسى بالأطباء. فإن الله إنما جعل معجزات الأنبياء بالوجه

الشهير أبدع ما يكون في زمن النبي الذي أراد إظهاره فكان السحر قد انتهى في مدة موسى إلى غايته، وكذلك الطب في زمن عيسى، والفصاحة في زمن محمد ﷺ.

تنبيهات

الأول: اختلف في تفاوت القرآن في مراتب الفصاحة بعد اتفاقهم على أنه في أعلى مراتب البلاغة، بحيث لا يوجد في التراكيب ما هو أشد تناسباً ولا اعتدالا إلى إفادة ذلك المعنى منه، فاختار القاضي المنع وأن كل كلمة فيه موصوفة بالذروة العليا، وإن كان بعض الناس أحسن إحساساً له من بعض. واختار ابو نصر القشيري وغيره التفاوت ففي القرآن الأفصح والفصيح.

الثاني: قيل الحكمة في تنزيه القرآن عن الشعر الموزون، مع أن الموزون من الكلام رتبته فوق رتبة غيره، أن القرآن منبع الحق، ومجمع الصدق، وقصارى أمر الشاعر التخييل، بتصور الباطل في صورة الحق والإفراط في الاطراء والمبالغة في الذم والايذاء دون إظهار الحق وإثبات الصدق، ولهذا نزه الله نبيه عنه، ولأجل شهرة الشعر بالكذب سمى أصحاب البرهان القياسات المؤدية في أكثر الأمر إلى البطلان والكذب شعرية وقال بعض الحكماء: لم ير متدين صادق اللهجة مفلقا في شعره.

عناية العلماء بالعلوم المستنبطة من القرآن

قال تعالى: [ما فرطنا في الكتاب من شيء] وقال: [ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء].

وقال ﷺ «ستكون فتن»، قيل: وما المخرج منها؟ قال: «كتاب

الله، فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم» أخرجه الترمذي وغيره. وأخرج سعيد بن منصور، عن ابن مسعود، قال: «من أراد العلم فعليه بالقرآن، فإن فيه خبر الأولين والآخرين» قال البيهقي: يعني أصول العلم وأخرج البيهقي عن الحسن، قال: أنزل الله مائة وأربعة كتب، أودع علومها أربعة منها: التوراة والإنجيل والزبور والفرقان، ثم أودع علوم الثلاثة الفرقان.

وقال الإمام الشافعي رضي الله عنه: جميع ما تقوله الأمة شرح للسنة وجميع السنة شرح للقرآن.

وقال أيضاً: جميع ما حكم بهﷺ، فهو مما فهمه من القرآن ويؤيد هذا قولهﷺ: «إني لا أحل إلا ما أحل الله، ولا أحرم إلا ما حرم الله في كتابه» أخرجه بهذا اللفظ الشافعي في الأم.

وقال سعيد بن جبير: ما بلغني حديث عن رسول اللهﷺ على وجهه إلا وجدت مصداقه في كتاب الله.

وقال ابن مسعود: إذا حدثتكم بحديث أنبأتكم بتصديقه من كتاب الله تعالى. أخرجها ابن أبي حاتم.

وقال الشافعي أيضاً: ليست تنزل بأحد في الدين نازلة إلا في كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها، فإن قيل: من الأحكام ما ثبت ابتداء بالسنة، قلنا: ذلك مأخوذ من كتاب الله في الحقيقة، لأن كتاب الله أوجب علينا اتباع الرسولﷺ. وفرض علينا الأخذ بقوله.

وقال الشافعي مرة بمكة: سلوني عما شئتم أخبركم عنه في كتاب الله، فقيل له: ما تقول في المحرم يقتل الزنبور؟ فقال: بسم الله الرحمن الرحيم [وما آتاكم الرسول فخذوه، وما نهاكم عنه فانتهوا].

وحدثنا سفيان بن عيينة عن عبد الملك بن عمير، عن ربعي بن حراش، عن حذيفة بن اليمان، عن النبيﷺ أنه قال: «اقتدوا بالذين

من بعدي أبي بكر وعمر».

وحدثنا سفيان، عن مسعر بن كدام، عن قيس بن مسلم، عن طارق بن شهاب، عن عمر بن الخطاب، أنه أمر بقتل المحرم الزنبور.

وأخرج البخاري، عن ابن مسعود، أنه قال: لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمصات، والمتفلجات للحسن، المغيرات خلق الله تعالى، فبلغ ذلك إمرأة من بني أسد، فقالت له: إنه بلغني أنك لعنت كيت وكيت! فقال: ومالي لا ألعن من لعن رسول الله ﷺ، وهو في كتاب الله تعالى! فقالت: لقد قرأت ما بين اللوحتين فما وجدت فيه كما تقول، قال: لئن كنت قرأتيه لقد وجدتيه، أما قرأت: [وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا] قالت: بلى، قال: فإنه قد نهى عنه.

وحكى ابن سراقة في كتاب الإعجاز، عن أبي بكر بن مجاهد، أنه قال يوماً: ما من شيء في العالم إلا وهو في كتاب الله، فقيل له فأين ذكر الخانات فيه؟ فقال في قوله: [ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة فيها متاع لكم] فهي الخانات.

وقال ابن برهان: ما قال النبي ﷺ من شيء فهو في القرآن به أو فيه أصله قرب أو بعد، ففهمه من فهمه، وعمه عنه من عمه، وكذا كل ما حكم به أو قضى به، وإنما يدرك الطالب من ذلك بقدر اجتهاده، وبذل وسعه، ومقدار فهمه.

وقال غيره: ما من شيء إلا يمكن استخراجه من القرآن لمن فهمه الله حتى إن بعضهم استنبط عمر النبي ﷺ، ثلاثا وستين سنة من قوله في سورة المنافقين: [ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها] فإنها رأس ثلاث وستين سورة، وعقبها بالتغابن ليظهر التغابن في فقده.

وقال ابن أبي الفضل المرسي في تفسيره: جمع القرآن علوم الأولين

والآخرين، بحيث لم يحط بها علماً حقيقة إلا المتكلم بها ثم رسول الله ﷺ خلا ما استأثر به سبحانه وتعالى، ثم ورث عنه معظم ذلك سادات الصحابة وأعلامهم، مثل الخلفاء الأربعة وابن مسعود وابن عباس، حتى قال: لو ضاع لي عقال بعير لوجدته في كتاب الله تعالى، ثم ورث عنهم التابعون بإحسان، ثم تقاصرت الهمم، وفترت العزائم، وتضاءل أهل العلم، وضعفوا عن حمل ما حمله الصحابة والتابعون من علومه وسائر فنونه، فنوعوا علومه، وقامت كل طائفة بفن من فنونه. فاعتنى قوم بضبط لغاته، وتحرير كلماته، ومعرفة مخارج حروفه، وعددها، وعدد كلماته وآياته وسوره وأحزابه وأنصافه وأرباعه، وعدد سجداته، والتعليم عند كل عشر آيات، إلى غير ذلك من حصر الكلمات المتشابهة، والآيات المتماثلة، من غير تعرض لمعانيه، ولا تدبر لما أودع فيه، فسموا القراء.

واعتنى النحاة بالمعرب منه والمبني من الأسماء والأفعال والحروف العاملة وغيرها، وأوسعوا الكلام في الأسماء وتوابعها وضروب الأفعال، واللازم والمتعدي ورسوم خط الكلمات، وجميع ما يتعلق به حتى إن بعضهم أعرب مشكله وبعضهم أعربه كلمة كلمة.

واعتنى المفسرون بألفاظه، فوجدوا منه لفظاً يدل على معنى واحد، ولفظاً يدل على معنيين، ولفظاً يدل على أكثر، فأجروا الأول على حكمه وأوضحوا معنى الخفي منه، وخاضوا في ترجيح أحد محتملات ذي المعنيين والمعاني، وأعمل كل منهم فكره، وقال بما اقتضاه نظره.

واعتنى الأصوليون بما فيه من الأدلة العقلية والشواهد الأصلية والنظرية مثل قوله تعالى: [لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا] إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة، فاستنبطوا منه أدلة على وحدانية الله

ووجوده وبقائه، وقدمه وقدرته وعلمه وتنزيهه عما لا يليق به وسموا هذا العلم بأصول الدين.

وتأملت طائفة منهم معاني خطابه، فرأت منها ما يقتضي العموم، ومنها ما يقتضي الخصوص، إلى غير ذلك، فاستنبطوا منه أحكام اللغة من الحقيقة والمجاز، وتكلموا في التخصيص والأخبار، والنص والظاهر والمجمل والمحكم والمتشابه، والأمر والنهي والنسخ، إلى غير ذلك من أنواع الأقيسة واستصحاب الحال والاستقراء، وسموا هذا الفن أصول الفقه.

وأحكمت طائفة صحيح النظر وصادق الفكر، فيما فيه من الحلال والحرام وسائر الأحكام، فأسسوا أصوله، وفرعوا فروعه، وبسطوا القول في ذلك بسطاً حسناً، وسموه بعلم الفروع وبالفقه أيضاً.

وتلمحت طائفة ما فيه من قصص القرون السالفة والأمم الخالية ونقلوا أخبارهم، ودونوا آثارهم ووقائعهم، حتى ذكروا بدء الدنيا وأول الأشياء، وسموا ذلك بالتاريخ والقصص.

وتنبه آخرون لما فيه من الحكم والأمثال والمواعظ، التي تقلقل قلوب الرجال، وتكاد تدكدك الجبال، فاستنبطوا مما فيه من الوعد والوعيد والتحذير والتبشير، وذكر الموت والمعاد، والنشر والحشر والحساب، والعقاب والجنة والنار فصولا من المواعظ، وأصولا من الزواجر، فسموا بذلك الخطباء والوعاظ.

واستنبط قوم مما فيه من أصول التعبير، مثل ما ورد في قصة يوسف في البقرات السمان، وفي منامي صاحبي السجن، وفي رؤياه الشمس والقمر والنجوم ساجدة، وسموه تعبير الرؤيا. واستنبطوا تفسير كل رؤيا من الكتاب، فإن عز عليهم إخراجها منه فمن السنة التي هي شارحة للكتاب فإن عسر فمن الحكم والأمثال، ثم نظروا إلى اصطلاح

العوام في مخاطباتهم وعرف عاداتهم الذي أشار إليه القرآن بقوله: [وأمر بالعرف].

وأخذ قوم مما في آية المواريث من ذكر السهام وأربابها، وغير ذلك علم الفرائض، واستنبطوا منها من ذكر النصف والثلث والربع والسدس والثمن حساب الفرائض ومسائل العول، واستخرجوا منه أحكام الوصايا. ونظر قوم إلى ما فيه من الآيات الدالات على الحكم الباهرة في الليل والنهار، والشمس والقمر ومنازله، والنجوم والبروج وغير ذلك. فاستخرجوا منه علم المواقيت.

ونظر الكتاب والشعراء إلى ما فيه من جزالة اللفظ وبديع النظم وحسن السياق والمبادىء والمقاطع والمخالص، والتلوين في الخطاب والاطناب والإيجاز وغير ذلك، فاستنبطوا منه المعاني والبيان والبديع. ونظر فيه أرباب الإشارات وأصحاب الحقيقة، فلاح لهم من ألفاظه معان ودقائق جعلوا لها أعلاماً اصطلحوا عليها، مثل الفناء، والبقاء والحضور، والخوف، والهيبة، والأنس، والوحشة، والقبض، والبسط، وما أشبه ذلك، هذه الفنون التي أخذتها الملة الإسلامية منه.

قال الغزالي وغيره: آيات الأحكام خمسمائة آية، وقال بعضهم مائة وخمسون، قيل: ولعل مرادهم المصرح به، فان آيات القصص والأمثال وغيرها يستنبط منها كثير من الأحكام.

قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام في كتاب الإمام في أدلة الأحكام: معظم آي القرآن لا يخلو عن أحكام مشتملة على آداب حسنة، وأخلاق جميلة.

قال: ويستدل على الأحكام تارة بالصيغة وهو ظاهر، وتارة بالأخبار مثل: [أحل لكم] [حرمت عليكم الميتة] [كتب عليكم الصيام] وتارة بما رتب عليها في العاجل أو الآجل من خير أو شر، أو نفع أو

ضر، وقد نوع الشارع ذلك أنواعاً كثيرة ترغيباً لعباده، وترهيباً وتقريباً إلى أفهامهم، فكل فعل عظمه الشرع أو مدحه أو مدح فاعله لأجله أو أحبه أو أحب فاعله، أو رضي به أو رضي عن فاعله، أو وصفه بالاستقامة أو البركة أو الطيب، أو أقسم به أو بفاعله كالإقسام بالشفع والوتر وبخيل المجاهدين، وبالنفس اللوامة أو نصبه سبباً لذكره لعبده أو لمحبته أو لثواب عاجل أو آجل، أو لشكره له، أو لهدايته إياه، أو لإرضاء فاعله، أو لمغفرة ذنبه وتكفير سيئاته أو لقبوله، أو لنصرة فاعله، أو بشارته، أو وصف فاعله بالطيب، أو وصف الفعل بكونه معروفاً، أو نفي الحزن والخوف عن فاعله أو وعده بالأمن، أو نصب سبباً لولايته، أو أخبر عن دعاء الرسول بحصوله أو وصفه بكونه قربة، أو بصفة مدح، كالحياة والنور والشفاء، فهو دليل على مشروعيته المشتركة بين الوجوب والندب.

وكل فعل طلب الشارع تركه أو ذمه أو ذم فاعله، أو عتب عليه، أو مقت فاعله أو لعنه، أو نفى محبته أو محبة فاعله، أو الرضا به أو عن فاعله، أو شبه فاعله بالبهائم أو بالشياطين، أو جعله مانعاً من الهدى أو من القبول، أو وصفه بسوء أو كراهة، أو استعاذ الأنبياء منه أو أبغضوه أو جعل سبباً لنفي الفلاح أو لعذاب عاجل أو آجل، أو لذم أو لوم أو ضلالة أو معصية، أو وصف بخبث أو رجس أو نجس، أو بكونه فسقاً أو إثماً، أو سبباً لإثم أو رجس أو لعن أو غضب، أوزوال نعمة، أو حلول نقمة، أو حد من الحدود، أو قسوة أو خزي أو امتهان نفس، أو لعداوة الله أو محاربته أو لاستهزائه أو سخريته. أو جعله الله سبباً لنسيانه فاعله، أو وصفه نفسه بالصبر عليه أو بالحلم، أو بالصفح عنه، أو دعا إلى التوبة منه، أو وصف فاعله بخبث أو احتقار، أو نسبه إلى عمل الشيطان، أو تزيينه. أو تولى الشيطان لفاعله، أو وصفه بصفة ذم ككونه ظلماً أو بغياً، أو عدواناً أو

إثماً أو مرضاً، أو تبرأ الأنبياء منه أو من فاعله، أو شكوا إلى الله من فاعله، أو جاهروا فاعله بالعداوة، أو نهوا عن الأسى والحزن عليه، أو نصب سبباً لخيبة فاعله عاجلا أو آجلا أو رتب عليه حرمان الجنة وما فيها، أو وصف فاعله بأنه عدو لله، أو بأن الله عدوه، أو أعلم فاعله بحرب من الله ورسوله، أو حمل فاعله إثم غيره أو قيل فيه: لا ينبغي هذا أو لا يكون، أوأمر بالتقوى عند السؤال عنه، أو أمر بفعل مضاده، أو بهجر فاعله، أو تلاعن فاعلوه في الآخرة أو تبرأ بعضهم من بعض أو دعا بعضهم على بعض، أو وصف فاعله بالضلالة، أوأنه ليس من الله في شيء، أو ليس من الرسول وأصحابه، أو جعل اجتنابه سبباً للفلاح، أو جعله سبباً لإيقاع العداوة والبغضاء بين المسلمين، أو قيل: هل أنت منته، أو نهى الأنبياء عن الدعاء لفاعله، أو رتب عليه إبعاداً أو طرداً، أو لفظة «قتل من فعله» أو «قاتله الله» أو أخبر أن فاعله لا يكلمه الله يوم القيامة، ولا ينظر إليه ولا يزكيه، ولا يصلح عمله، ولا يهدي كيده أولا يفلح أو قيّض له الشيطان أو جعل سبباً لإزاغة قلب فاعله أو صرفه عن آيات الله أوسؤاله عن علة الفعل فهو دليل على المنع من الفعل، ودلالته على التحريم أظهر من دلالته على مجرد الكراهة.

وتستفاد الاباحة من لفظ الاحلال، ونفي الجناح والحرج والاثم والمؤاخذة، ومن الإذن فيه والعفو عنه، ومن الامتنان بما في الأعيان من المنافع، ومن السكوت عن التحريم، ومن الإنكار على من حرم الشيء ومن الإخبار بأنه خلق أو جعل لنا، والإخبار عن فعل من قبلنا غير ذام لهم عليه، فإن اقترن بإخباره مدح دل على مشروعيته وجوباً أو استحباباً. انتهى كلام الشيخ عز الدين.

وقال غيره: قد يستنبط من السكوت، وقد استدل جماعة على أن القرآن غير مخلوق بأن الله ذكر الإنسان في ثمانية عشر موضعاً، وقال:

إنه مخلوق، وذكر القرآن في أربعة وخمسين موضعاً ولم يقل إنه مخلوق، ولما جمع بينهما غاير، فقال: [الرحمن، علم القرآن، خلق الإنسان].

أمثال القرآن

قال تعالى: [ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون]، وقال تعالى: [وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون].

وأخرج البيهقي عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ «إن القرآن نزل على خمسة أوجه: حلال، وحرام، ومحكم، ومتشابه وأمثال، فاعملوا بالحلال، واجتنبوا الحرام، واتبعوا المحكم، وآمنوا بالمتشابه، واعتبروا بالأمثال».

قال الماوردي: من أعظم علم القرآن علم أمثاله، والناس في غفلة عنه لاشتغالهم بالأمثال، وإغفالهم الممثلات. والمثل بلا ممثل كالفرس بلا لجام، والناقة بلا زمام.

وقال غيره: قد عده الشافعي مما يجب على المجتهد معرفته من علوم القرآن، فقال: ثم معرفة ما ضرب فيه من الأمثال الدوال على طاعته، المبينة لاجتناب معصيته.

وقال الشيخ عز الدين: إنما ضرب الله الأمثال في القرآن تذكيراً ووعظاً، فما اشتمل منها على تفاوت في ثواب، أو على إحباط عمل، أو على مدح أو ذم أو نحوه، فإنه يدل على الأحكام.

فصل

أمثال القرآن قسمان: ظاهر مصرح به، وكامن لا ذكر للمثل فيه،

فمن أمثلة الأول قوله تعالى: [مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً] الآيات، ضرب فيها للمنافقين مثلين: مثلا بالنار، ومثلا بالمطر.

ومنها قوله تعالى: [أنزل من السماء ماءً فسالت أودية بقدرها...] الآية، أخرج ابن أبي حاتم من طريق علي عن ابن عباس، قال: هذا مثل ضربه الله احتملت منه القلوب على قدر يقينها وشكها، [فأما الزبد فيذهب جفاء]، وهو الشك، [وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض] وهو اليقين كما يجعل الحلي في النار فيؤخذ خالصه ويترك خبثه في النار، كذلك يقبل الله اليقين ويترك الشك.

وأخرج عن عطاء قال: هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر.

وأخرج عن قتادة، قال: هذه ثلاثة أمثال ضربها الله في مثل واحد، يقول: كما اضمحل هذا الزبد فصار جفاء لا ينتفع به، ولا ترجى بركته كذلك يضمحل الباطل عن أهله، وكما مكث هذا الماءُ في الأرض فأمرعت وربت بركته، وأخرجت نباتها، وكذلك الذهب والفضة حين أدخل النار، فأذهب خبثه، كذلك يبقى الحق لأهله، وكما اضمحل خبث هذا الذهب حين أدخل في النار، كذلك يضمحل الباطل عن أهله.

ومنها قوله تعالى: [والبلد الطيب..] الآية، أخرج ابن أبي حاتم من طريق على عن ابن عباس، قال: هذا مثل ضربه الله للمؤمن. يقول: هو طيب وعمله طيب، كما أن البلد الطيب ثمرها طيب، والذي خبث ضرب مثلا للكافر، كالبلد السبخة المالحة، والكافر هو الخبيث وعمله خبيث.

ومنها قوله تعالى: [أيود أحدكم أن تكون له جنة...] الآية أخرج البخاري عن ابن عباس قال: قال عمر بن الخطاب يوماً لأصحاب النبي ﷺ: فيمن ترون هذه الآية نزلت؟ [أيود أحدكم أن تكون له

جنة من نخيل وأعناب] قالوا: الله أعلم، فغضب عمر وقال: قولوا: نعلم أو لا نعلم! فقال ابن عباس: في نفسي منها شيء فقال: يابن أخي قل ولا تحقر نفسك، قال ابن عباس: ضربت مثلا لعمل، قال عمر: أي عمل؟ قال ابن عباس: لرجل غني يعمل بطاعة الله، ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله.

وأما الكامنة، فقال الماوردي: سمعت أبا اسحق إبراهيم بن مضارب بن إبراهيم، يقول: سمعت أبي يقول: سألت الحسن بن الفضل فقلت: إنك تخرج أمثال العرب والعجم من القرآن، فهل تجد في كتاب الله «خير الأمور أوساطها»؟ قال نعم: في أربعة مواضع: قوله تعالى: [لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك] وقوله تعالى: [والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً].

وقوله تعالى: [ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط].

وقوله تعالى: [ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا] قلت: فهل تجد في كتاب الله «من جهل شيئاً عاداه»؟ قال: نعم في موضعين [بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه]، [وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم].. قلت: فهل تجد في كتاب الله: «احذر شر من أحسنت إليه»؟.

قال: نعم: [وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله].

قلت: فهل تجد في كتاب الله: «ليس الخبر كالعيان»؟ قال في قوله تعالى: [قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي]. قلت: فهل تجد «في الحركات البركات»؟ قال: في قوله تعالى: [ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة] قلت: فهل تجد «كما تدين تدان»؟.

قال في قوله تعالى: [من يعمل سوءا يجز به] قلت: فهل تجد فيه

قولهم: «حين تقلى تدرى؟» قال: [وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا] قلت: فهل تجد فيه قولهم: «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين»؟ قال: [هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل]. قلت: فهل تجد فيه «من أعان ظالماً سلط عليه»؟ قال: [كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير] قلت: فهل تجد فيه قولهم: «لا تلد الحية إلا حية» قال: قوله تعالى: [ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً]، قلت: هل تجد فيه: «للحيطان آذان»؟ قال: [وفيكم سماعون لهم]، قلت: فهل تجد فيه: «الجاهل مرزوق والعالم محروم»؟ قال: [من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدا] قلت: فهل تجد فيه«الحلال لا يأتيك إلا قوتاً، والحرام لا يأتيك إلا جزافاً» قال: [إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً ويوم لا يسبتون لا تأتيهم].

فائدة

عقد جعفر بن شمس الخلافة في كتاب الآداب بابا في ألفاظ من القرآن، جارية مجرى المثل، وهذا هو النوع البديعي المسمى بإرسال المثل وأورد من ذلك قوله تعالى: [ليس لها من دون الله كاشفة]، [لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون]، [الآن حصحص الحق]، [وضرب لنا مثلا ونسي خلقه] [ذلك بما قدمت يداك]، [قضي الأمر الذي فيه تستفتيان] [أليس الصبح بقريب]، [وحيل بينهم وبين ما يشتهون] [لكل نبإ مستقر]، [ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله]، [قل كل يعمل على شاكلته]، [وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم]، [كل نفس بما كسبت رهينة]، [ما على الرسول إلا البلاغ]، [ما على المحسنين من سبيل] [هل جزاء الإحسان إلا الاحسان]، [كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة] [آلآن وقد عصيت قبل]، [تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى] [ولا ينبئك مثل خبير]، [كل حزب بما لديهم فرحون]، [ولو علم الله فيهم

خيراً لأسمعهم]، [وقليل من عبادي الشكور]، [لا يكلف الله نفساً إلا وسعها]، [قل لا يستوي الخبيث والطيب]. [ظهر الفساد في البر والبحر]، [ضعف الطالب والمطلوب]، [لمثل هذا فليعمل العاملون] [وقليل ما هم]، [فاعتبروا يا أولي الأبصار] في ألفاظ أخر.

في أقسام القرآن

أفرده ابن القيم بالتصنيف في مجلد سماه التبيان، والقصد بالقسم تحقيق الخبر وتوكيده، حتى جعلوا مثل: [والله يشهد إن المنافقين لكاذبون] قسما، وإن كان فيه إخبار بشهادة لأنه لما جاء توكيداً للخبر سمي قسما.

وقد قيل: ما معنى القسم منه تعالى، فإنه إن كان لأجل المؤمن فالمؤمن مصدق بمجرد الإخبار من غير قسم، وإن كان لأجل الكافر فلا يفيده وأجيب بأن القرآن نزل بلغة العرب، ومن عادتها القسم إذا أرادت أن تؤكد أمراً.

وأجاب أبو القاسم القشيري بأن الله ذكر القسم لكمال الحجة وتأكيدها، وذلك لأن الحكم يفصل باثنين: إما بالشهادة وإما بالقسم، فذكر تعالى في كتابه النوعين حتى لا يبقى لهم حجة، فقال: [قل إي وربي إنه لحق]، [شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم].

وعن بعض العرب أنه لما سمع قوله تعالى: [وفي السماء رزقكم وما توعدون، فورب السماء والأرض إنه لحق]. صرخ وقال: من ذا الذي أغضب الجليل حتى ألجأه إلى اليمين.

ولا يكون القسم إلا باسم معظم، وقد أقسم الله تعالى: بنفسه في القرآن في سبعة مواضع:

الآية المذكورة وقوله: [قل إي وربي]، [قل بلى وربي لتبعثن] [فوربك

لنحشرنهم والشياطين]، [فوربك لنسألنهم أجمعين] [فلا وربك لا يؤمنون]، [فلا أقسم برب المشارق والمغارب].

والباقي كله قسم بمخلوقاته، كقوله تعالى: [والتين والزيتون] [والصافات]، [والشمس]، [والليل]، [والضحى]، [فلا أقسم بالخنس]، فإن قيل: كيف أقسم بالخلق وقد ورد النهي عن القسم بغير الله؟ قلنا: أجيب عنه بأوجه:

أحدها: أنه على حذف مضاف، أي ورب التين ورب الشمس وكذا الباقي.

والثاني: إن العرب كانت تعظم هذه الأشياء، وتقسم بها، فنزل القرآن على ما يعرفونه.

الثالث: أن الأقسام إنما تكون بما يعظمه المقسم أو يجله وهو فوقه، والله تعالى ليس شيء فوقه، فأقسم تارة بنفسه وتارة بمصنوعاته لأنها تدل على بارئ وصانع.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن الحسن، قال: إن الله يقسم بما شاء من خلقه وليس لأحد أن يقسم إلا بالله.

وقال العلماء: أقسم الله تعالى بالنبي ﷺ في قوله: [لعمرك] لتعرف الناس عظمته عند الله ومكانته لديه.

أخرج ابن مردويه عن ابن عباس، قال: ما خلق الله ولا ذرأ ولا برأ نفساً أكرم عليه من محمد ﷺ، وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره، قال: [لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون] ثم هو سبحانه وتعالى يقسم على أصول الإيمان التي تجب على الخلق معرفتها، وتارة يقسم على التوحيد، وتارة يقسم على أن القرآن حق، وتارة على أن الرسول حق، وتارة على الجزاء والوعد والوعيد، وتارة على حال الإنسان.

فالأول كقوله: [والصافات صفا] إلى قوله: [إن إلهكم لواحد].

والثاني كقوله: [فلا أقسم بمواقع النجوم، وإنه لقسم لو تعلمون عظيم، إنه لقرآن كريم].

والثالث كقوله: [يس، والقرآن الحكيم، إنك لمن المرسلين] [والنجم إذا هوى، ما ضل صاحبكم وما غوى...] الآيات.

والرابع كقوله: [والذاريات] إلى قوله: [إنما توعدون لصادق، وإن الدين لواقع]، [والمرسلات] إلى قوله: [إنما توعدون لواقع].

والخامس كقوله: [والليل إذا يغشى] إلى قوله: [إن سعيكم لشتى] الآيات [والعاديات] إلى قوله: [إن الإنسان لربه لكنود]، [والعصر، إن الإنسان لفي خسر]، [والتين] إلى قوله: [لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم...] الآيات [لا أقسم بهذا البلد] إلى قوله: [لقد خلقنا الإنسان في كبد].

في جدل القرآن

اشتمل القرآن العظيم على جميع أنواع البراهين والأدلة. وما من برهان ودلالة وتقسيم وتحذير يبنى من كليات المعلومات العقلية والسمعية إلا وكتاب الله قد نطق به، لكن أورده على عادة العرب، دون دقائق طرق المتكلمين لأمرين:

أحدهما: بسبب ما قاله: [وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم].

والثاني: أن المائل إلى دقيق المحاجة هو العاجز عن إقامة الحجة بالجليّ من الكلام، فإن من استطاع أن يفهم بالأوضح الذي يفهمه الأكثرون لم ينحط إلى الأغمض الذي لا يعرفه إلا الأقلون، ولم يكن ملغزا فأخرج تعالى مخاطباته في محاجة خلقه في أجلى صورة، ليفهم

العامة من جليها ما يقنعهم، وتلزمهم الحجة، وتفهم الخواص من أثنائها ما يربي على ما أدركه فهم الخطباء.

ومن أمثلة ذلك أنه استدل سبحانه وتعالى على المعاد الجسمي بضروب:

أحدها: قياس الإعادة على الابتداء، كما قال تعالى: [كما بدأكم تعودون]، [كما بدأنا أول خلق نعيده]، [أفعيينا بالخلق الأول].

ثانيها: قياس الإعادة على خلق السموات والأرض بطريق الأولى، قال تعالى: [أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر...] الآية.

ثالثها: قياس الإعادة على إحياء الأرض بعد موتها بالمطر والنبات.

رابعها: قياس الإعادة على إخراج النار من الشجر الأخضر. وقد روى الحاكم وغيره أن أبي بن خلف جاء بعظم ففته، فقال: أيحيي الله هذا بعد ما بلي ورمّ، فأنزل الله: [قل يحييها الذي أنشأها أول مرة]، فاستدل سبحانه وتعالى برد النشأة الأخرى إلى الأولى، والجمع بينهما بعلة الحدوث، ثم زاد في الحجاج بقوله: [الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً]، وهذه في غاية البيان في رد الشيء إلى نظيره، والجمع بينهما من حيث تبديل الأعراض عليهما.

ومن ذلك الاستدلال على أن صانع العالم واحد، بدلالة التمانع المشار إليها في قوله: [لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا]، لأنه لو كان للعالم صانعان لكان لا يجري تدبيرهما على نظام، ولا ينسق على إحكام، ولكان العجز يلحقهما أو أحدهما، وذلك لأنه لو أراد أحدهما إحياء جسم وأراد الآخر إماتته، فإما أن تنفذ إرادتهما فيتناقض لاستحالة تجزيء الفعل إن فرض الإتفاق، أو لامتناع اجتماع الضدين إن فرض الإختلاف وإما ألا تنفذ إرادتهما، فيؤدي إلى عجزهما، أو لا تنفذ إرادة أحدهما فيؤدي إلى عجزه، والإله لا يكون عاجزاً.

ومن الأنواع المصطلح عليها في علم الجدل القول بالموجب، قال ابن ابي الأصبع: وحقيقته رد كلام الخصم من فحوى كلامه، وهو قسمان:

أحدهما: أن تقع صفة في كلام الغير كناية عن شيء أثبت له حكم فنثبتها لغير ذلك الشيء كقوله تعالى: [يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة] الآية: فـ «الأعز» وقعت في كلام المنافقين كناية عن فريقهم، و«الأذل» عن فريق المؤمنين، وأثبت المنافقون لفريقهم إخراج المؤمنين من المدينة، فأثبت الله في الرد عليهم صفة العزة لغير فريقهم وهو الله ورسوله والمؤمنون، فكأنه قيل: صحيح ذلك، ليخرجن الأعز منها الأذل، لكن هم الأذل المخرج، والله ورسوله الأعز المخرج.

الثاني: حمل لفظ وقع في كلام الغير على خلاف مراده مما يحتمله بذكر متعلقه، قال السيوطي: ولم أر من أورد له مثالا من القرآن، وقد ظفرت بآية منه وهي قوله تعالى: [ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن قل أذن خير لكم].

ومنها المناقضة، وهي تعليق أمر على مستحيل، إشارة إلى استحالة وقوعه كقوله تعالى: [ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط].

ومنها مجاراة الخصم ليعثر، بأن يسلم بعض مقدماته، حيث يراد تبكيته وإلزامه، كقوله تعالى: [قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين. قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم] الآية فقولهم: [إن نحن إلا بشر مثلكم] الآية فيه اعتراف الرسل بكونهم مقصورين بالبشرية، فكأنهم سلموا انتفاء الرسالة عنهم، وليس مرادا، بل هو من مجاراة الخصم ليعثر، فكأنهم قالوا: ما ادعيتم من كوننا بشراً حق لا ننكره، ولكن هذا لا ينافي أن يمنَّ الله علينا بالرسالة.

فيما وقع في القرآن من الأسماء والكنى والألقاب

في القرآن من أسماء الأنبياء والمرسلين خمسة وعشرون، وهم مشاهيرهم آدم أبو البشر، نوح، إدريس، إبراهيم، إسماعيل، وهو أكبر ولد إبراهيم، إسحاق - ولد بعد إسماعيل بأربع عشرة سنة، يعقوب - عاش مائة وسبعا وأربعين سنة. يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، لوط: قال ابن اسحاق: هو لوط بن هاران بن آزر، هود، صالح، شعيب، موسى، هارون، داود، سليمان ولده، وأيوب، ذو الكفل، يونس، إلياس، اليسع، زكريا، يحيى ولده، وعيسى ومحمّد عليه وعليهم الصلاة والسلام.

أسماء الملائكة

وفيه من أسماء الملائكة:

جبريل وميكائيل ومالك خازن جهنم .

وهاروت وماروت.

أسماء الصحابة وغيرهم

وفيه من أسماء الصحابة: زيد بن حارثة.

وفيه من أسماء المتقدمين غير الأنبياء والرسل: عمران أبو مريم وعزير، وتبع، ولقمان، ويوسف الذي في سورة غافر ويعقوب في أول سورة مريم على قول، وتقي في قوله فيها : [إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً] قيل: إنه اسم رجل كان من أمثل الناس، أي إن كنت في الصلاح مثل تقي، حكاه الثعلبي.

وفيه من أسماء النساء: مريم لا غير، وقيل: إن بعلا في قوله [أتدعون بعلا] اسم إمرأة كانوا يعبدونها، حكاه ابن عساكر.

وفيه من أسماء الكفار: قارون، وآزر وجالوت وهامان.

وفيه من أسماء الجن: أبوهم إبليس.

وفيه من أسماء القبائل: يأجوج ومأجوج، وعاد، وثمود، ومدين وقريش، والروم.

وفيه من الأقوام بالإضافة: قوم نوح، وقوم لوط، وقوم تبع، وقوم إبراهيم، وأصحاب الأيكة - وقيل: هم مدين - وأصحاب الرس: وهم بقية من ثمود، قاله ابن عباس. وقال عكرمة: هم أصحاب ياسين.

وقال قتادة: هم قوم شعيب، وقيل: هم أصحاب الأخدود، واختاره ابن جرير.

وفيه من أسماء الأصنام التي كانت أسماء لأناس: ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر، وهي أصنام قوم نوح، واللات والعزى ومناة، وهي أصنام قريش، وكذا الرجز فيمن قرأ بضم الراء، ذكره الأخفش في كتاب الواحد والجمع أنه اسم صنم، والجبت والطاغوت وبعل.

وفيه من أسماء البلاد والبقاع والأمكنة والجبال: بكة اسم لمكة، والمدينة، وبدر، وأحد، وحنين، والمشعر الحرام، ومصر وبابل، والأيكة، والحجر، والأحقاف. وطور سينا، والجودي، وطوى: اسم الوادي، والكهف والرقيم، والعرم، وحرد، والصريم: أخرج ابن جبير عن سعيد بن جبير أنها أرض باليمن تسمى بذلك، وق وهو جبل محيط بالأرض، والجرز: هو اسم أرض، والطاغية: قيل اسم البقعة التي أهلكت بها ثمود، حكاها الكرماني.

وفيه من أسماء الأماكن الأخروية: الفردوس، وهو أعلى مكان في الجنة، وعليون، قيل أعلى مكان في الجنة، والكوثر نهر في الجنة، وسلسبيل وتسنيم: عينان في الجنة، وسجين: اسم لمكان أرواح الكفار، وصعود: جبل في جهنم، كما أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد مرفوعاً.

وغـي ، وأثـام ، وموبـق ، والسعير ، وويـل ، وسائـل ، وسحـق : أوديـة في جهنم ، ويحموم : دخان أسود .

وفيه من أسماء الكواكب: الشمس، والقمر، والطارق، والشعرى، قال بعضهم: سمى الله في القرآن عشرة أجناس من الطير: السلوى، والبعوض، والـذبـاب، والنحـل، والعنكبوت، والجراد، والهـدهـد، والغراب، وأبابيل، والنمل.

أما الكنى، فليس في القرآن منها غير أبي لهب، واسمه، عبد العزى.

فوائد

يستحب تقبيل المصحف، لأن عكرمة بن أبي جهل رضي الله عنه كان يفعله، وبالقياس على تقبيل الحجر الأسود ذكره بعضهم ولأنه هدية من الله تعالى، فشرع تقبيله كما يستحب تقبيل الولد الصغير.

وعن أحمد ثلاث روايات: الجواز، والاستحباب، والتوقف، وإن كان فيه رفعة وإكرام لأنه لا يدخله قياس، ولهذا قال عمر في الحجر: لولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك.

ويستحب تطييب المصحف، وجعله على كرسي، ويحرم توسده لأن فيه إذلالا وامتهاناً. قال الزركشي: وكذا مد الرجلين إليه.

أخرج ابن أبي داود في المصاحف، عن سفيان، أنه كره أن تعلق المصاحف. وأخرج عن الضحاك، قال: لا تتخذوا للحديث كراسي ككراسي المصاحف.

ويجوز تحليته بالفضة إكراماً له على الصحيح. أخرج البيهقي عن الوليد بن مسلم، قال: سألت مالكاً عن تفضيض المصاحف، فأخرج إلينا مصحفاً، فقال: حدثني أبي عن جدي أنهم جمعوا القرآن في عهد عثمان،

وأنهم فضضوا المصاحف على هذا أو نحوه.

أما بالذهب فالأصح جوازه للمرأة دون الرجل، وخص بعضهم الجواز بنفس المصحف، دون غلافه المنفصل عنه، والأظهر التسوية.

وإذا احتيج إلى تعطيل بعض أوراق المصحف لبلى ونحوه، فلا يجوز وضعها في شق أو غيره لأنه قد يسقط ويوطأ، ولا يجوز تمزيقها لما فيه من تقطيع الحروف وتفرقة الكلم، وفي ذلك إزدراء بالمكتوب، كذا قال الحليمي.

قال: وله غسلها بالماء، وإن أحرقها بالنار فلا بأس، أحرق عثمان مصاحف كان فيها آيات وقراءات منسوخة، ولم ينكر عليه.

وذكر غيره أن الاحراق أولى من الغسل، لأن الغسالة قد تقع على الأرض.

روى ابن أبي داود عن ابن المسيب، قال: لا: يقول أحدكم: مصيحف ولا مسيجد، ما كان لله تعالى فهو عظيم.

ومذهب جمهور العلماء تحريم مس المصحف للمحدث، سواء كان أصغر أم أكبر، لقوله تعالى: [لا يمسه إلا المطهرون]، وحديث الترمذي وغيره: لا يمس القرآن إلا طاهر.

روى ابن ماجه وغيره عن أنس مرفوعاً: سبع يجري للعبد أجرهن بعد موته وهو في قبره: من علم علما، أو أجرى نهراً، أو حفر بئراً، أو غرس نخلا، أو بنى مسجداً، أو ترك ولدا يستغفر له من بعد موته، أو ورث مصحفاً.

في مفردات القرآن

أخرج السلفي في المختار من الطيوريات، عن الشعبي، قال: لقي عمر بن الخطاب ركباً في سفر، فيهم ابن مسعود، فأمر رجلا يناديهم: من

أين القوم؟ قالوا: أقبلنا من الفج العميق، نريد البيت العتيق، فقال عمر: إن فيهم لعالماً، وأمر رجلا أن يناديهم: أي القرآن أعظم؟ فأجابه عبد الله [الله لا إله إلا هو الحي القيوم] قال: نادهم: أي القرآن أحكم؟ فقال ابن مسعود: [إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى] قال: نادهم أي القرآن أجمع؟ فقال: [فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره] فقال: نادهم: أي القرآن أحزن؟ فقال: [من يعمل سوءاً يجزبه] فقال: نادهم: أي القرآن أرجى؟ فقال: [قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم] الآية، فقال: أفيكم ابن مسعود؟ ؟قالوا: نعم. أخرجه عبد الرزاق في تفسيره بنحوه.

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة قال: سئل ابن عباس: أي آية أرجى في كتاب الله؟ قال: قوله: [إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا].

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن، قال: سألت أبا برزة الأسلمي عن أشد آية في كتاب الله تعالى على أهل النار، فقال: [فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً].

وقال بعضهم: أطول سورة في القرآن البقرة، وأقصرها الكوثر، وأطول آية فيه آية الدَّين، وأقصرها آية فيه [والضحى]، [والفجر] وأطول كلمة فيه رسماً [فاسقيناكموه].

وفي القرآن آيتان جمعت كل منهما حروف المعجم [ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة..] الآية [محمد رسول الله...] الآية.

وليس فيه حاء بعد حاء بلا حاجز إلا في موضعين [عقدة النكاح حتى] [لا أبرح حتى].

ولا كافان كذلك إلا [مناسككم]، [ما سلككم].

ولا غينان كذلك إلا [ومن يبتغ غير الإسلام].

ولا آية فيه ثلاثة وعشرون كافا إلا آية الدين.

ولا آيتان فيهما ثلاثة عشر وقفاً إلا آيتا المواريث.

ولا سورة ثلاث آيات فيها عشر واوات إلا والعصر إلى آخرها ولا سورة إحدى وخمسون آية، فيها اثنان وخمسون وقفاً إلا سورة الرحمن.

وقال أبو عبد الله الخبازي المقرىء: أول ما وردت على السلطان محمود بن ملكشاه سألني عن آية أولها غين قلت: ثلاثة [غافر الذنب] وآيتان بخلف [غلبت الروم] [غير المغضوب عليهم] . ونقل السيوطي من خط شيخ الإسلام ابن حجر: في القرآن أربع شدات متوالية في قوله: [نسيا منسيا رب السموات] [في بحر لُجيّ يغشاه موج]، [قولا من رب رحيم]، [ولقد زينا السماء الدنيا].

في ذكر الآيات المبهمات

إعلم أن علم المبهمات مرجعه النقل المحض، ونحن نذكر أهم ما ورد في ذلك:

قوله تعالى: [إني جاعل في الأرض خليفة] هو آدم وزوجه حواء.

[ومن الناس من يعجبك قوله] هو الأخنس بن شريق. [ومن الناس من يشرى نفسه] هو صهيب.

[ومنهم من كلم الله] قال مجاهد: موسى [ورفع بعضهم درجات] قال: محمد [إمرأة عمران] حنة بنت فاقوذ [منادياً ينادي للإيمان] هو محمد ﷺ. [ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت] هو ضمرة بن جندب، [وإني جار لكم] عنى سراقة بن جعشم. [إذ يقول لصاحبه] هو أبو بكر الصديق [ومنهم من يقول ائذن لي] هو الجد بن قيس.

[ومنهم من يلمزك في الصدقات] هو ذو الخويصرة [إن نعف عن

طائفة منكم] هو مخشي بن حمير. [ومنهم من عاهد الله] هو ثعلبة بن حاطب. [وآخرون اعترفوا بذنوبهم] هم سبعة : أبو لبابة وأصحابه، وجد بن قيس، وحرام وأوس، وكردم، ومرداس، [وآخرون مرجون] هم هلال بن أمية، ومرارة بن الربيع، وكعب بن مالك وهم الثلاثة الذين خلفوا [والذين اتخذوا مسجداً ضراراً] قال ابن اسحاق: اثنا عشر من الأنصار [أفمن كان على بينة من ربه] محمد ﷺ: [ويتلوه شاهد منه] هو جبريل، وقيل: القرآن، وقيل: أبو بكر، وقيل: علي. [إنا كفيناك المستهزئين] قال سعيد بن جبير هم خمسة: الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، وأبو زمعة، والحارث بن قيس، والأسود بن عبد يغوث. [ومن يأمر بالعدل] عثمان بن عفان [هذان خصمان] أخرج الشيخان عن أبي ذر، قال: نزلت هذه الآية في حمزة وعبيدة بن الحارث وعلي بن أبي طالب وعتبة وشيبة والوليد بن عتبة.

[إمرأة تملكهم] هي بلقيس بنت شراحيل.

[الذي عنده علم] هو آصف بن برخيا كاتبه [إمرأة فرعون] آسية بنت مزاحم [أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً] نزلت في علي بن أبي طالب والوليد بن عقبة، [قول التي تجادلك] هي خولة بنت ثعلبة [في زوجها] هو أوس بن الصامت. [أسر النبي إلى بعض أزواجه] هي حفصة [نبأت به] أخبرت عائشة [إن تتوبا] [وإن تظاهرا] هما عائشة وحفصة [وصالح المؤمنين] هما أبو بكر وعمر، أخرجه الطبراني في الأوسط، [ذرني ومن خلقت وحيداً] هو الوليد بن المغيرة [فلا صدق ولا صلى] الآيات نزلت في أبي جهل [أن جاءه الأعمى] هو عبد الله بن أم مكتوم [أما من استغنى] هو أمية بن خلف، وقيل: هو عتبة بن ربيعة.

أسباب الإبهام في القرآن

وللإبهام في القرآن أسباب:

أحدها: الاستغناء ببيانه في موضع آخر، كقوله: [صراط الذين أنعمت عليهم] فإنه مبين في قوله: [مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين].

الثاني: أن يتعين لاشتهاره، كقوله: [وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة]، ولم يقل: «حواء» لأنه ليس له غيرها. [ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه] والمراد نمروذ لشهرة ذلك، لأنه المرسل إليه.

الثالث: قصد الستر عليه، ليكون أبلغ في استعطافه، نحو: [ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا] الآية، هو الأخنس بن شريق، وقد أسلم بعد، وحسن إسلامه.

الرابع: ألا يكون في تعيينه كبير فائدة، نحو: [أو كالذي مر على قرية]، [واسألهم عن القرية].

الخامس: التنبيه على العموم، وأنه غير خاص، بخلاف مالوعيّن، نحو: [ومن يخرج من بيته مهاجراً].

والسادس: تعظيمه بالوصف الكامل دون الاسم، نحو: [ولا يأتل أولو الفضل]، [والذي جاء بالصدق وصدق به]، [إذ يقول لصاحبه] المراد الصديق في الكل.

السابع: تحقيره بالوصف الناقص، نحو: [إن شانئك هو الأبتر].

في معرفة تفسير القرآن وتأويله
وبيان الحاجة إليه

واختلف في التفسير أو التأويل، فقال أبو عبيد وطائفة: هما بمعنى.

وقال الراغب: التفسير أعم من التأويل، وأكثر استعماله في الألفاظ ومفرداتها، وأكثر استعمال التأويل في المعاني والجمل، وأكثر ما يستعمل في الكتب الإلهية، والتفسير يستعمل فيها وفي غيرها.

وقال الزركشي: التفسير علم يفهم به كتاب الله المنزل على نبيه محمد ﷺ وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه، واستمداد ذلك من علم اللغة والنحو والتصريف وعلم البيان وأصول الفقه والقراءات، ويحتاج لمعرفة أسباب النزول والناسخ والمنسوخ وأما شرفه فلا يخفى، قال تعالى: [يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً].

عن ابن عباس في قوله: [يؤتي الحكمة]، قال: المعرفة بالقرآن، ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، ومقدمه ومؤخره، وحلاله وحرامه، وأمثاله.

وأخرج أبو ذر الهروي في فضائل القرآن من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنه قال: الذي يقرأ القرآن ولا يحسن تفسيره كالأعرابي يهذ الشعر هذا.

وأخرج البيهقي وغيره من حديث أبي هريرة مرفوعاً: أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه.

وأخرج ابن الأنباري، عن أبي بكر الصديق، قال: لأن أعرب آية من القرآن أحب إلي من أن أحفظ آية.

وأخرج أيضاً عن عبد الله بن بريدة عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: لو أني أعلم إذا سافرت أربعين ليلة، أعربت آية من كتاب الله لفعلت.

وأخرج أيضاً من طريق الشعبي، قال: قال عمر: من قرأ القرآن فأعربه، كان له عند الله أجر شهيد.

قال السيوطي: معنى هذه الآثار عندي إرادة البيان والتفسير لأن إطلاق الإعراب على الحكم النحوي إصطلاح حادث، ولأنه كان في سليقتهم لا يحتاجون إلى تعلمه.

قال الأصبهاني: أشرف صناعة يتعاطاها الإنسان تفسير القرآن فصناعة التفسير قد حازت الشرف من الجهات الثلاث، أما من جهة الموضوع، فلأن موضوعه كلام الله تعالى الذي هو ينبوع كل حكمة، ومعدن كل فضيلة، فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم لا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه.

وأما من جهة الغرض، فلأن الغرض منه هو الاعتصام بالعروة الوثقى والوصول إلى السعادة الحقيقية التي لا تفنى.

وأما من جهة شدة الحاجة، فلأن كل كمال ديني أو دنيوي عاجل أو آجل، مفتقر إلى العلوم الشرعية والمعارف الدينية، وهي متوقفة على العلم بكتاب الله تعالى.

أمهات مآخذ التفسير

أمهاتها أربعة:

الأول: النقل عن النبي ﷺ، وهذا هو الطراز المعلم، لكن يجب الحذر من الضعيف منه والموضوع، فإنه كثير، ولهذا قال أحمد: ثلاث كتب لا أصل لها: المغازي والملاحم والتفسير، قال المحققون من أصحابه:

مراده أن الغالب أنه ليس لها أسانيد صحاح متصلة ، وإلا فقد صح من ذلك كثير ، كتفسير الظلم بالشرك في آية الأنعام ، والحساب اليسير بالعرض ، والقوة بالرمي في قوله : [وأعدوا لهم مااستطعتم من قوة] .

قال السيوطي مستدركا على هذا الكلام الذي قرره الزركشي : الذي صح من ذلك قليل جدا بل أصل المرفوع منه في غاية القلة .

الثاني : الأخذ بقول الصحابي ، فإن تفسيره عندهم بمنزلة المرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، كما قاله الحاكم في مستدركه .

الثالث : الأخذ بمطلق اللغة ، فإن القرآن نزل بلسان عربي وهذا قد ذكره جماعة ، ونص عليه أحمد في مواضع ، لكن نقل الفضل بن زياد عنه أنه سئل عن القرآن يمثل له الرجل ببيت من الشعر ، فقال : مايعجبني . فقيل : ظاهره المنع ، ولهذا قال بعضهم : في جواز تفسير القرآن بمقتضى اللغة روايتان عن أحمد. وقيل : الكراهة تحمل على صرف الآية عن ظاهرها إلى معان خارجة محتملة يدل عليها القليل من كلام العرب ولا يوجد غالبا إلا في الشعر ونحوه ويكون المتبادر خلافها.

الرابع: التفسير بالمقتضى من معنى الكلام والمقتضب من قوة الشرع وهذا هو الذي دعا به النبي ﷺ لابن عباس، حيث قال: اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل، والذي عناه علي بقوله: إلا فهماً يؤتاه الرجل في القرآن. ومن هنا اختلف الصحابة في معنى الآية، فأخذ كل برأيه على منتهى نظره، ولا يجوز تفسير القرآن بمجرد الرأي والاجتهاد من غير أصل، قال تعالى: [ولا تقف ما ليس لك به علم] وقال: [وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون] وقال: [لتبين للناس ما نزل إليهم] فأضاف البيان إليه. وقال ﷺ: من تكلم في القرآن برأيه، فأصاب فقد أخطأ. أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي وقال: من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار. أخرجه أبو داود.

قال البيهقي في الحديث الأول: هذا إن صح، فإنما اراد - والله أعلم - الرأي الذي يغلب من غير دليل قام عليه، وأما الذي يشدّه

برهان فالقول به جائز.

وقال الماوردي: قد حمل بعض المتورعة هذا الحديث على ظاهره وامتنع من أن يستنبط معاني القرآن باجتهاده، ولو صحبتها الشواهد ولم يعارض شواهدها نص صريح، وهذا عدول عما تعبدنا بمعرفته من النظر في القرآن واستنباط الأحكام، كما قال تعالى: [لعلمه الذين يستنبطونه منهم]. ولو صح ما ذهب إليه لم يعلم شيء بالاستنباط ولما فهم الأكثرون من كتاب الله شيئاً. وإن صح الحديث فتأويله أن من تكلم في القرآن بمجرد رأيه، ولم يعرج على سوى لفظه، وأصاب الحق، فقد أخطأ الطريق، وإصابته اتفاق، إذ الغرض أنه مجرد رأي لا شاهد له، وفي الحديث: القرآن ذلول ذو وجوه، فاحملوه على أحسن وجوهه، أخرجه أبو نعيم وغيره من حديث ابن عباس. فقوله: ذلول يحتمل معنيين أحدهما: أنه مطيع لحامليه تنطق به ألسنتهم.

والثاني: أنه موضح لمعانيه حتى لا تقصر عنه أفهام المجتهدين.

وقوله: ذو وجوه، يحتمل معنيين أحدهما: أن من ألفاظه ما يحتمل وجوها من التأويل، والثاني: أنه قد جمع وجوها من الأوامر والنواهي والترغيب والترهيب والتحليل والتحريم».

وقوله: «فاحملوه على أحسن وجوهه» يحتمل معنيين: أحدهما: الحمل على أحسن معانيه، والثاني أحسن ما فيه من العزائم دون الرخص والعفو دون الانتقام، وفيه دلالة ظاهرة على جواز الاستنباط والاجتهاد في كتاب الله تعالى.

ومنهم من قال: يجوز تفسيره لمن كان جامعاً للعلوم التي يحتاج المفسر إليها وهي خمسة عشر علماً.

أحدها: اللغة، لأن بها يعرف شرح مفردات الألفاظ ومدلولاتها بحسب الوضع.

الثاني: النحو، لأن المعنى يتغير ويختلف باختلاف الإعراب فلا بد من اعتباره، أخرج أبو عبيد عن الحسن، أنه سئل عن الرجل يتعلم العربية يلتمس بها حسن المنطق، ويقيم بها قراءته، فقال: حسن، فتعلمها، فإن الرجل يقرأ الآية فيعيى بوجهها، فيهلك فيها.

الثالث: التصريف، لأن به تعرف الأبنية والصيغ، قال ابن فارس ومن فاته علمه فاته المعظم.

الرابع: الاشتقاق، لأن الإسم إذا كان اشتقاقه من مادتين مختلفتين اختلف المعنى باختلافها، كالمسيح، هل هو من السياحة أو المسح.

الخامس والسادس والسابع: المعاني والبيان والبديع، لأنه يعرف بالأول خواص تركيب الكلام من جهة إفادتها المعنى، وبالثاني خواصها من حيث اختلافها بحسب وضوح الدلالة وخفائها، وبالثالث وجوه تحسين الكلام، وهذه العلوم الثلاثة هي علوم البلاغة، وهي من أعظم أركان المفسر، لأنه لا بد له من مراعاة ما يقتضيه الاعجاز، وإنما يدرك بهذه العلوم.

الثامن: علم القراءات، لأن به يعرف كيفية النطق بالقرآن وبالقراءات يترجح بعض الوجوه المحتملة على بعض.

التاسع: أصول الدين بما في القرآن من الآيات الدالة بظاهرها على ما لا يجوز على الله تعالى، فالأصولي يعرف طريق تخريج ذلك على مناط يتفق مع العقيدة الصحيحة.

العاشر: أصول الفقه، إذ به يعرف وجه الاستدلال على الأحكام والاستنباط.

الحادي عشر: أسباب النزول والقصص، إذ بسبب النزول يعرف معنى الآية المنزلة فيه بحسب ما أنزلت فيه.

الثاني عشر: الناسخ والمنسوخ ليعلم المحكم من غيره.

الثالث عشر: الفقه.

الرابع عشر: الأحاديث المبينة لتفسير المجمل والمبهم.

الخامس عشر: علم الموهبة، وهو علم يورثه الله تعالى لمن عمل بما علم، وإليه الإشارة بأثر: من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم. قال ابن أبي الدنيا: وعلوم القرآن وما يستنبط منه بحر لا ساحل له. قال: فهذه العلوم - التي هي كالآلة للمفسر - لا يكون مفسراً إلا بتحصيلها، فمن فسر بدونها كان مفسراً بالرأي المنهي عنه، وإذا فسر مع حصولها لم يكن مفسراً بالرأي المنهي عنه.

قال: والصحابة والتابعون كان عندهم علوم العربية بالطبع لا بالاكتساب واستفادوا العلوم الأخرى من النبي صلى الله عليه وسلم.

قال في البرهان: اعلم أنه لا يحصل للناظر فهم معاني الوحي، ولا يظهر له أسراره وفي قلبه بدعة أو كبر أو هوى أو حب الدنيا، أو وهو مصر على ذنب، أو غير متحقق بالإيمان أو ضعيف التحقق، أو يعتمد على قول مفسر ليس عنده علم، أو راجع إلى معقوله، وهذه كلها حجب وموانع بعضها آكد من بعض.

في طبقات المفسرين

تفسير الصحابة:

اشتهر بالتفسير من الصحابة عشرة: الخلفاء الأربعة، وابن مسعود، وابن عباس، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو موسى الأشعري، وعبد الله بن الزبير.

أما الخلفاء فأكثر من روي عنه منهم علي بن أبي طالب، والرواية عن الثلاثة نزرة جداً، وكأن السبب في ذلك تقدم وفاتهم، كما أن ذلك هو

السبب في قلة رواية أبي بكر رضي الله عنه للحديث، ولا يحفظ عن أبي بكر رضي الله عنه في التفسير إلا آثار قليلة جداً لا تكاد تجاوز العشرة، وأما علي فروي عنه الكثير، وقد روى معمر عن وهب بن عبد الله عن أبي الطفيل، قال: شهدت عليا يخطب، وهو يقول: سلوني فوالله لا تسألونني عن شيء إلا أخبرتكم، وسلوني عن كتاب الله، فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم: أبليل نزلت أم بنهار، أم في سهل أم في جبل.

وأخرج أبو نعيم في الحلية من طريق أبي بكر بن عياش، عن نصير ابن سليمان الأحمسي، عن أبيه، عن علي، قال: والله ما نزلت آية إلا وقد علمت فيم أنزلت وأين أنزلت، إن ربي وهب لي قلباً عقولا، ولساناً سئولا.

وأما ابن مسعود فروي عنه أكثر مما روي عن علي، وقد أخرج ابن جرير وغيره عنه أنه قال: والذي لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت، وأين نزلت، ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله مني تناله المطايا لأتيته.

وأخرج أبو نعيم عن أبي البحتري، قال: قالوا لعلي: أخبرنا عن ابن مسعود، قال: علم القرآن والسنة، ثم انتهى، وكفى بذلك علماً.

وأما ابن عباس فهو ترجمان القرآن الذي دعا له النبي ﷺ: اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل. وقال له أيضاً: اللهم آته الحكمة.

وفي رواية: اللهم علمه الحكمة.

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن ابن عمر قال: دعا رسول الله ﷺ لعبد الله بن عباس، فقال: اللهم بارك فيه وانشر منه.

وأخرج من طريق عبد المؤمن بن خالد عن عبد الله بن بريدة، عن ابن عباس قال: انتهيت إلى النبي ﷺ وعنده جبريل فقال له جبريل:

إنه كائن حبر هذه الأمة، فاستوص به خيراً.

وأخرج من طريق عبدالله بن حراش، عن العوام بن حوشب، عن مجاهد قال: قال ابن عباس: قال لي رسول الله ﷺ: نعم ترجمان القرآن أنت.

وأخرج البيهقي في الدلائل عن ابن مسعود، قال: نعم ترجمان القرآن عبد الله بن عباس.

وأخرج أبو نعيم عن مجاهد، قال: كان ابن عباس يسمى البحر لكثرة علمه.

وأخرج عن ابن الحنفية، قال: كان ابن عباس حبر هذه الأمة.

وأخرج عن الحسن، قال: إن ابن عباس كان من القرآن بمنزل، كان عمر يقول: ذاكم فتى الكهول، إن له لساناً سئولا، وقلبا عقولا.

وأخرج البخاري من طريق سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وجد في نفسه، فقال: لم يدخل هذا معنا، وإن لنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه من علمتم. فدعاهم ذات يوم، فأدخله معهم. فما رأيت أنه دعاني فيهم يومئذ إلا ليريهم - فقال: ما تقولون في قول الله تعالى: [إذا جاء نصر الله والفتح] ؟ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا وسكت بعضهم ولم يقل شيئاً، فقال لي: أكذلك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا، فقال: ما تقول؟ فقلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له فقال: [إذا جاء نصر الله والفتح]، فذلك علامة أجلك، فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً. فقال عمر: لا أعلم منها إلا ما تقول..

طبقة التابعين:

قال ابن تيمية: أعلم الناس بالتفسير أهل مكة، لأنهم أصحاب ابن عباس، كمجاهد وعطاء بن أبي رباح وعكرمة مولى ابن عباس، وسعيد بن جبير وطاووس وغيرهم. وكذلك في الكوفة أصحاب ابن مسعود، وعلماء أهل المدينة في التفسير، مثل زيد بن أسلم الذي أخذ عنه ابنه عبد الرحمن بن زيد ومالك بن أنس. انتهى.

فمن المبرزين منهم مجاهد، قال الفضل بن ميمون: سمعت مجاهداً يقول: عرضت القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة.

وعنه أيضاً قال: عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات أقف عند كل آية منه ، وأسأله عنها فيم نزلت؟ وكيف كانت؟

وقال خصيف: كان أعلمهم بالتفسير مجاهد.

وقال الثوري: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به.

قال ابن تيمية: ولهذا يعتمد على تفسيره الشافعي والبخاري وغيرهما من أهل العلم.

قال السيوطي: وغالب ما أورده الفريابي في تفسيره عنه، وما أورده فيه عن ابن عباس أو غيره قليل جداً.

ومنهم سعيد بن جبير، قال سفيان الثوري: خذوا التفسير عن أربعة: عن سعيد بن جبير، ومجاهد، وعكرمة، والضحاك.

وقال قتادة: كان أعلم التابعين أربعة، كان عطاء بن أبي رباح أعلمهم بالمناسك، وكان سعيد بن جبير أعلمهم بالتفسير، وكان عكرمة أعلمهم بالسير، وكان الحسن أعلمهم بالحلال والحرام.

ومنهم عكرمة مولى ابن عباس، قال الشعبي: ما بقي أحد أعلم بكتاب الله من عكرمة، وقال سماك بن حرب: سمعت عكرمة يقول: لقد

فسرت ما بين اللوحين.

ومنهم الحسن البصري، وعطاء بن أبي رباح، وعطاء ابن أبي سلمة الخراساني ومحمد بن كعب القرظي، وأبو العالية، والضحاك بن مزاحم وعطية العوفي، وقتادة، وزيد بن أسلم، ومرة الهمداني، وأبو مالك، ويليهم الربيع بن أنس وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم في آخرين.

فهؤلاء قدماء المفسرين، وغالب أقوالهم تلقوها عن الصحابة.

ثم بعد هذه الطبقة ألفت تفاسير تجمع أقوال الصحابة والتابعين كتفسير سفيان بن عيينة، ووكيع بن الجراح، وشعبة بن الحجاج، ويزيد بن هارون، وعبد الرزاق، وآدم بن أبي إياس، وإسحاق بن راهويه، وروح بن عبادة، وعبد بن حميد، وسعيد، وأبي بكر بن أبي شيبة وآخرين.

وبعدهم ابن جرير الطبري، وكتابه أجل التفاسير وأعظمها ثم ابن أبي حاتم وابن ماجه والحاكم وابن مردويه وأبو الشيخ بن حبان وابن المنذر في آخرين، وكلها مسندة إلى الصحابة والتابعين وأتباعهم، وليس فيها غير ذلك إلا ابن جرير، فإنه يتعرض لتوجيه الأقوال وترجيح بعضها على بعض والاعراب والاستنباط، فهو يفوقها بذلك.

ثم ألف في التفسير خلائق، فاختصروا الأسانيد، ونقلوا الأقوال بتراء، فدخل من هنا الدخيل، والتبس الصحيح بالعليل، ثم صار كل من يسنح له قول يورده، ومن يخطر بباله شيء يعتمده، ثم ينقل ذلك عنه من يجيء بعده، ظاناً أن له أصلا، غير ملتفت إلى تحرير ما ورد عن السلف الصالح ومن يرجع إليهم في التفسير.

ثم صنف بعد ذلك قوم برعوا في علوم، فكان كل منهم يقتصر في تفسيره على الفن الذي يغلب عليه، فالنحوي تراه ليس له هم إلا الإعراب وتكثير الأوجه المحتملة فيه، ونقل قواعد النحو ومسائله وفروعه وخلافياته، كالزجاج والواحدي في البسيط وأبي حيان في

البحر والنهر.

والاخباري ليس له شغل إلا القصص واستيفاءها والأخبار عمن سلف، سواء كانت صحيحة أو باطلة كالثعلبي.

والفقيه يكاد يسرد فيه الفقه من باب الطهارة إلى أمهات الأولاد، وربما استطرد إلى إقامة أدلة الفروع الفقهية التي لا تعلق لها بالآية والجواب عن أدلة المخالفين كالقرطبي.

وصاحب العلوم العقلية. خصوصاً الإمام فخر الدين - قد ملأ تفسيره بأقوال الحكماء والفلاسفة وشبهها، وخرج من شيء إلى شيء، حتى يقضي الناظر العجب من عدم مطابقة المورد للآية، قال أبو حيان في البحر: جمع الإمام الرازي في تفسيره أشياء كثيرة طويلة لا حاجة بها في علم التفسير، ولذلك قال بعض العلماء: فيه كل شيء إلا التفسير.

والمبتدع ليس له قصد إلا تحريف الآيات وتسويتها على مذهبه الفاسد، بحيث إنه متى لاح له شاردة من بعيد اقتنصها، أو وجد موضعاً له فيه أدنى مجال سارع إليه. قال البلقيني: استخرجت من الكشاف اعتزالا بالمناقيش من قوله تعالى في تفسير [فمن زحزح عن النار وأُدخل الجنة فقد فاز] وأي فوز أعظم من دخول الجنة، أشار به إلى عدم الرؤية.

قال السيوطي: فإن قلت: فأي التفاسير ترشد إليه، وتأمر الناظر أن يعول عليه. قلت: تفسير الإمام أبي جعفر بن جرير الطبري الذي أجمع العلماء المعتبرون على أنه لم يؤلف في التفسير مثله.

قال النووي في تهذيبه: كتاب ابن جرير في التفسير لم يصنف أحد مثله.

خاتمة وتعريف

الإتقان في علوم القرآن: لمؤلفه شيخ الإسلام أبو الفضل الإمام جلال الدين السيوطي - كتاب اشتهر كمؤلفه - بين علماء المسلمين شهرة الشمس في الآفاق وشهرة القرآن بين العالمين، إذ جمع فيه مؤلفه - رحمه الله - شتات العلوم والمعارف التي تتعلق بالقرآن تفسيراً وقراءات ونواسخ ولغة وأحكاماً وعقيدة وسنة وفوائد ومعارف لا يمكن حصرها في هذه العجالة ولكنها تصل بدارسها إلى درجة الإتقان لعلوم القرآن الذي هو أصل كل الأصول في الإسلام، أو كما يقول السيوطي في مقدمته: «وعلومه (أي القرآن) شاملة، فأردت أن أذكر في هذا التصنيف ما وصل إليه علمي مما حواه القرآن الشريف من أنواع علمه المنيف»...

إلا أن سعي المؤلف إلى الاستقصاء والإحاطة بكل علم الزم نفسه بعرضه وكل سند أورده - جعل هذا الكنز محدود الانتشار خارج دائرة العلماء والباحثين في هذه العلوم، وإن كان طلبها فريضة كفائية على كل قادر من المسلمين.

وقد أدرك حاجة المسلمين وطلاب علوم القرآن إلى الانتفاع بهذا الكنز الثمين - عالم أصيل من كرام علماء مكة هو فضيلة الأخ الدكتور محمد علوي المالكي بن علاّمة الحجاز ومدرس الحرم الشريف فضيلة السيد علوي المالكي رحمه الله - فاستخلص جواهر الإتقان بأسلوب التزم فيه الصفاء والأمانة والسهولة والإتقان، وقد طابقناه على أصله فوجدناه قد أوفى على المراد، وزاد تلك (الزبدة) تبسيطاً ييسر

الإلمام بهذه العلوم الغالية لكل مسلم ولكل شاب يتوق إلى معرفة كتاب الله العزيز.

فجزى الله عالم شبابنا السيد محمد علوي المالكي عن الإسلام خيراً بما بذله ويبذله من تآليف نافعة يقصد بها رضوان الله.

الناشر

المحتويات

الموضوع	الصفحة